قراءة في منهج ابن بسَّام النقدي

الأستاذ المساعد الدكتور
خالد لفته باقر
جامعة البصرة – كلية الآداب

ملخص البحث

تتجلَّى في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسَّام الشنتريني ملامح نقدية تميزه عن غيره من النقاد الأندلسيين ، فقد أشار هذا البحث إلى نزعته الأندلسية في الدفاع عن أدبائهم ، وتراثهم ، كما هو واضح ، في مقدمة كتابه ، إذ سطَّر فيها أروع أفكاره بصراحة تامة ، كما توقف هذا البحث عند تلك الملاحظات النقدية التي تتعلق بموقفه من أشعار المشارقة والمغاربة والموازنة فيما بينها ، وقد عالج أيضاً آراءه في أشعار القدماء ، فضلاً عن رأيه في بيان فضل النثر على الشعر ، ومن المظاهر النقدية التي عالجها هذا البحث هو موضوع شرح الأشعار وتفسيرها ، ولم يعر البحث اهتماماً للموشَّحات أو القضايا التي تتعلق بموقفه من أشعار العلماء والفلاسفة ، أو شعر الإلحاد والهجاء ، وحديثه عن السرقات الأدبية ، وما ذكره من مصطلحات لها ، فقد كان ابن بسَّام متأثراً بالموروث النقدي القديم وبمصطلحاته ، لأنَّ كل ذلك قد وضحه الباحث في أطروحته الموسومة ب (ابن بسَّام مؤرخاً أدبياً ، ناقداً ، أسلوبياً ، مع دراسة كتاب الذخيرة) التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة كلاسكو عام ١٩٨٦م .

Abstract

This research tackles some of Ibn Bassam,s criticism attitudes through his book (Al – Dhakhirah Fi Mahaasin Ahl Al – Jazeerah)) . This critical features concentrated on comparing Andalusian poetry with Eastern and morocco poetry , and the research sheides light on ancient poetry , so that preference for prose than poetry , finally this research discusses interpretation of poetry ,As it concern it does not focus on muwashshahaat and his attitude to infidel ideas , and philosophical terminology , so that the researcher studies these topics in his thesis presented in the Faculty of Arts for the degree of Doctor of philosophy in the University of Glasgow in 1986 .

المقدمـــة :

تعدُّ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسَّام الشنتريني عملاً أدبياً فذّاً ، ونصّاً نقديّاً كبيراً ، نال حظوة لدى الدارسين المحدثين ، ولقي عناية من لدن الباحثين والمؤلفين القدماء ، إذ اعتمد عليه كل من ابن دحية في المطرب ، وابن سعيد في المغرب ، والمقَّري في نفح الطيب ، ويأتي هذا الاهتمام بها ، ، لكونها عالجت قضايا نقدية ، وأمور بلاغية على درجة كبيرة من الأهمية، إذ درس الدكتور حسين يوسف خريوش كتاب ابن بسام بعنوان (ابن بسام وكتابه الذخيرة) صدر عام ١٩٨٠م ، كما نال الباحث شهادة الدكتوراه بأطروحته

الموسومة ب (ابن بسام مؤرخاً أدبياً ، ناقداً ، أسلوبياً مع دراسة كتاب الذخيرة) من جامعة كلاسكو ، في المملكة المتحدة عام ١٩٨٦م، ناقش فيها الباحث كل الموضوعات التي تعرض لها ابن بسام في كتابه ، ولكن الذي حفَّزني على دراسته مرَّة أخرى هو أنَّ الوضع النقدي في مرحلة الثمانينيات كان تقليدياً ، ولما تطورت الدراسات النقدية خاصَّة ، أصبح لزاماً على الباحثين إعادة النظر في الموضوعات التي درست من قبل ، في ضوء المناهج النقدية الحديثة ، وفي ضوء هذه المناهج ، تمَّ تسليط الضوء على القيمة النقدية لهذا الأثر الثمين ، وتقديمه بصورة أفضل مما سبق ، من حيث استبطان النصوص الأندلسية والمشرقية وتحليل خطاباتها الأدبية ، بما يكشف عن مواقف نقدية ، ودلالات شعرية مختفية في أغوار تراكيب هذا الأثر الفني . لقد كانت الدراسات السابقة معنية ـــــ بحق ـــــ في مجال التاريخ الأدبي ، بعيداً عن مجال التحليل النقدي الجاد والمثري ، وتقويم النصوص الأدبية ، إلاَّ من وقفات متأنية تعزى لنخبة من الباحثين العرب ، جاءت إضافة نوعية في مجال معالجة الآثار النقدية الأندلسة ، كدراسة السيد محمد علي سلنتي الموسومة ب (القضايا النقدية والبلاغية عند ابن بسام في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) ، الذي صدر عن دار الحداثة عام ٢٠٠٨م ، ورسالة الطالب محمود جمعة أمين الموسومة ب (الاتجاهات النقدية في كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام) نال فيها شهادة الماجستير من جامعة الأزهر عام ٢٠٠١م ، وتبقى الذخيرة ميدان عمل متجدد ، ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتسدَّ فراغاً في المكتبة الأندلسية خاصة ، والعربية عامة ، بما أثارته من موضوعات مهمة كقضية الموازنة بين الأشعار الأندلسية والمغربية والمشرقية ، والموقف من أشعار القدماء ، والمفاضلة بين الشعر

والنثر ، فضلاً عن شرح الأشعار وتفسيرها ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة في هذا الكتاب . ولم تقف عند الأشعار المكشوفة ، والأفكار الإلحادية والمصطلحات الفلسفية وتفضيله للأسلوب التقليدي في الشكل الشعري .

قراءة في منهج ابن بسَّام النقدي

لعل أبرز الأمور النقدية والإشكاليات الفنية التي حظيت بعناية ابن بسام واحتلت مركز الصدارة من مواقفه النقدية ، قضية القديم والحديث ، فضلاً عن مسألة المفاضلة بين النصوص الأندلسية والأشعار المشرقية ، أو الموازنة بين الشعراء الأندلسيين فيما بينهم ، كل ذلك يؤدي إلى إصدار حكم بتميز هذا النَّصِّ وتفوقه على النَّصِّ الآخر ، وفقاً لمعايير فنية ، مع الأخذ بنظر الاعتبار الموازنة بين مبتكري هذه النصوص سواءً أكانوا من الأندلسيين أم المشارقة ، ومن هنا يأتي تحديد الخطاب النقدي بأنَّه تقويم النص الأدبي منظوماً كان أو منثوراً ، وتقدير القيمة الفنية لهذا النص أو ذاك ، في خطاب محدد ، يمارسه ناقد معين كابن بَسَّام ، يعالج فيه النصوص المخصوصة التي تقع بين عامي (٤٠٣ و ٥٠٣) ، وفي هذا الشأن تظهر هذه الممارسة بوصفها عملاً إنسانياً واعياً وتاماً ، ممتداً عبر هذه المرحلة ، كما يبدو من دراسة ابن بَسَّام في كتابه الشهير (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) ، مشيراً إلى مرحلة زمنية محددة ، تجلَّى ذلك في قوله : ((وقد كتبت لأرباب هذا الشان ، من أهل الوقت والزمان ... واعتمدت المائة الخامسة مـــن الهجـــرة ، فشرحت بعضاً منها ، وجلوت وجوه فتنها ، ولخَّصت القول بين قبيحها وحسنها))[١] .

ولم يؤثر عنه أنَّه أفرد لهذه الآراء كتاباً متخصَّصاً ، كما هو الحال مع النقاد الذين سبقوه من المشارقة ، (كابن سلاَّم الجمحي (ت٢٣٢هـ) ، وابن المعتزّ (ت٢٩٦هـ) وقدامه بن جعفر (ت٣٣٧هـ) ، وعلي بن عبد العزيز الجرجاني (ت٣٦٦هـ)، والآمدي (ت٣٧٠هـ) ، وابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) ... وغيرهم) ، بيد أنَّه لم يتوان في عرض آرائه ، وإبداء أحكامه ، وطرح ملاحظاته ، في ضوء المنهج الذي رسمه لكتابهِ ، وخطته التي انفرد بها من دون أقرانه ، إذ فرَّق مادته في ثنايا كتابه وبثَّها هنا وهناك ، كلَّما سنحت له الفرصة ، فهو لم يآل جهداً أن يطالعنا بمادة علمية نقدية يستند فيها إلى مقوماته الثقافية وذوقه الأدبي ، وآراء النقاد السابقين من مشارقة وأندلسيين ، ومن أهم ما يمكن ملاحظته في كتابه الشهير هذا هي تلك النظرة الضَّيِّقة إلى التراث المشرقي ، محاولاً النيل منه ، والغضَّ من شأن أدبائه ، في الوقت الذي يحاول فيه الارتقاء بالأدب الأندلسي إلى الدُّرى ، والسمو بالأدباء الأندلسيين إلى القمم والأعالي ، حاطَّاً من أساتذتهم كلَّما سنحت لهُ المناسبة . ومع ذلك نجده لايغفل الجودة الفنية في التراث المشرقي ، إذ يقف عندها ، وينوه بذكرها ، مبدياً رأيه فيها ، مفضلاً إيَّاها على النص الأندلسي وعلى العموم فقد ورد في مقدمة ذخيرته إشارات واضحة إلى تلك النزعة الأندلسية إزاء التراث الأدبي المشرقي ، من خلال ذلك يمكن تحديد موقفه النقدي بسهولة ، في غضون هذه الملاحظات التي يقول فيها : ((أمَّا بعد حمد لله ولي الحمدِ وأهلهِ ، والصلاة على سيدنا محمد خاتم رُسلهِ ، فأنَّ ثمرة هذا الأدب ، العالي الرتب ، رسالةٌ تُنثر وتُرسل ، وأبياتٌ تنظم وتفصل؛ تنثال تلك انثيال القطار على صفحات الأزهار ، وتتصل هذه اتصال القلائد على

نحور الخرائد ، وما زال في أفقنا هذ الأندلسي القصِيِّ إلى وقتنا هذا من فرسان الفنَّين ، وأئمة النوعين ، قومٌ هم ما هم طيبَ مكاسِرَ ، وصفاءَ جواهرَ ، وعذوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقَّق ، لعب الدُّجى بجفون المؤرَّق ، وحدوا بفنون السِّحر المُنَمَّق ، حُداء الأعشى ببنات المحلَّق ، فصبَّوا على قوالب النُّجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غُرَرَ الضُحى والأصائلِ ، بعجائب الأشعار والرسائلِ ، نَثْرٌ لو رآهُ البديعُ لنسي أسمه ، أو اجتلاه ابن هلالٍ لولاه حكمه ، ونظمٌ لو سمعه كثيرٌ ما نَسَبَ ولا مدحَ ، أو تتبعهُ جَرْوَلٌ ما عوى ولا نبح))[٢] . نستطيع أن نلمس خيوط نظريته النقدية منذ الوهلة الأولى إذ يطالعنا في هذا النصِ موقفه من أدباء المشرق ، بالمقارنة مع أدباء بلده ، مختاراً نماذج عليا من كتُّاب وشعراء المشرق ، ليقارنهم بأدباء أُفقه ، مشيراً صراحة إلى إقرار أدباء المشرق بتفوق أدباء الأندلس عليهم ، وهي أكبر صرخة بوجه المشارقة ، وإن سبقه إلى ذلك كلٌّ من يحيى بن حكم الغزال ، وابن عبد ربِّه ، وابن حزم ، وابن شهيد ، والأديب أبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقَّب بحبيب صاحب كتاب ((البديع في فصل الربيع)) وغيــرهم ، وأكثر ما صدر عن هؤلاء الأدباء يمثل ملاحظات مبنية على ذلك الشعور بالأندلسية ، أو ما يمكن تسميته بتحقيق الذات الأندلسية ، لكنَّ صوت ابن حزم ومن بعده ابن بسَّام والشقندي وابن سعيد كان الأقوى بين أصحاب هذه النزعة ، فهو يؤكد على أنَّ أدبهم منمَّق وموشى ، وأنَّهم أيضاً أئمة في المنظوم والمنثور. حتى أن البديع لو رآه ـــــ أي النثر الأندلسي ـــــ ينسى اسمه ، أيُّ أدبٍ هذا الذي يسحر مبدع المقامات ، لينسيه اسمه ؟ أو تكشَّفه أبو هلال عميد الأدب العربي ، ووقف على بدائعه ، وبيَّن غرائبه ، لتخلَّى عن عمادة الأدب إلى هذا الأندلسي الذي باهى

بأدبه الضحى والأصائل ، إنَّها نزعة عارمة وتحيُّزٌ تامٌّ لكل ما هو أندلسي ، سواء أكان ذلك في الشعر أو في النثر ، واختار من الشعراء اثنين اشتهرا بالمدح والهجاء وهما : كُثيِّر والحُطيئة ، ليضعهما في منزلة دون منزلة الشعراء الأندلسيين في هذين الفنَّين ، وما أكثر ما كان يفعل ذلك في ثنايا ذخيرته ، وقد أكَّد هذه النزعة ابن عبد ربَّه قبله في ((العقد الفريد)) حينما قال : ((وقد نظرتُ في بعض الكتب الموضوعة ، فوجدتُها غير متفرقة في فنون الأخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامَّة والخاصَّة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ، وحلَّيت كُلَّ كتابٍ منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها ، وتوافقه في مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعري ؛ ليعلم النَّاظر في كتابنا هذا أنَّ لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه حظّاً من المنظوم والمنثور ، وسمَّيته ب ((العقد الفريد)) لما فيه من مُختلف جواهر الكلام ، مع دقَّة المسلك ، وحسن النِّظام))[٣]. وكانت أحكامه مستندة على خواص النَّصِّ الشعري الفنية ، بالإضافة إلى اعتماده على أحكام غيره من النقَّاد المشارقة والأندلسيين كابن شُهيد مثلاً . حيث أخذ عنهم كثيراً من الآراء النقدية ، التي تعنى بالشعر ، وموقف ابن بسَّام من أدباء الأندلس في متابعتهم لأخبار المشرق وأدبائهم ، كان موقفاً سلبياً ، لا سيَما عندما وجدهم يتلقون الأدب المشرقي بقبولٍ حسن ، هاملين نِتاج أدبائهم لا يقرأونه ، ولا يتصفحونه ، ولذلك أخذ نفسه بجمع ما وجده لهم من نادر مُستغرب ، وحسن مُستعذب ، يبهر الألباب ، ويسحر الشعراء والكُتَّاب ، ومع ذلك ، زاد إصراراً وعزماً بتحدي أبناء جلدته ، ينحو باللائمة عليهم قائلاً : ((إلاّ أنَّ أهل هذا الأفق أبوا إلاَّ متابعة أهل المشرق، يرجعون

إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتَّى لو نعق بتلك الأفاق غرابٌ ، أو طَنَّ بأقصى الشام والعراق ذُبابٌ ، لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذاك كتاباً مُحكماً ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصيَّة ومناخ الرذية ، لا يعمرُ بها جنانٌ ولا خَلَدٌ ، ولا يُصرَّفُ فيها لسانٌ ولا يدٌ ، فغاظني منهم ذلك ، وأنفت ممَّا هنالك ، وأخذتُ نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري ، وتتبُّعَ محاسن بلدي وعصري ، غيرةً لهذا الأفق الغريب أنْ تَعُودَ بُدُرُهُ أهِلَّة ، وتُصبْح بحاره ثمادا مضمحلَّة مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديماً ضيعوا العلم وأهله ، ويا رُبَّ محسنٍ مات إحسانهُ قبله ، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخصَّ أهل المشرق بالإحسان))[٤] ، وموقف ابن بسَّام واضحٌ في رؤيته ، لم يقع في دائرة التقليد والتبعية ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان مدافعاً عن أدب قومه بحرية في السبيل الذي اتخذه في هجومه على أهل المشرق ، وفق أسسٍ ثابتة ، ورؤية شمولية ، ليصبح مجدداً حداثياً ، حذا في ذلك حذو الجاحظ الذي ((استطاع أن يضع قواعد قامت على تعامله مع مسائل الموازنة بين النّصوص الشعرية ، والمفاضلة بين مبدعيها ، وترتيبهم ... بغرض البحث عن الجودة أينما كانت ومن أيٍّ كانت، ليكون المعيار الفني هو الفيصل الوحيد الأوحد (٥) .

وهذا ما احتذاه ابن بسَّام واتخذه دليلاً في دراسته للشعر الأندلسي ، مع لُمَّةٍ من النقَّاد الذين أشرنا إليهم سابقاً ، وللنقاد والشعراء المشارقة السهم الأوفر في هذا الخصوص ، كشهادة الثعالبي بحقِّ ابن درَّاج القسطلّي ، إذ يقول ابن بسام : ((وقد أجرى الثعالبي طرفاً من أمره ، وأغرب بلمع من شعره ، فقال في كتابه المترجم ب(اليتيمة) : بلغني أنَّ أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع

الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ، وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك ، وكان يجيد ما ينظم ويقول))[٦] .

أما النظرة الأخلاقية في الحكم على بعض الفنون الشعرية ، فقد تحدثت عنها في رسالتي للدكتوراه ، ولا حاجة لتكرارها هنا ، إذ استوفيت مناقشتها هنالك ، كموقفه من الألفاظ الفاحشة في الهجاء ، والأدب المكشوف ، وذكر العورات وما شاكل ذلك . ولا بدَّ من دراسة القضايا التي عالجها في كتابه ، وأوَّلها :

الموازنة والمفاضلة :

لقد عني ابن بسَّام بعقد المفاضلات والموازنات بين الشعراء الأندلسيين والمشارقة من جهة ، أو يجري تلك المقابلات بين الشعراء الأندلسيين أنفسهم ، من غير أن تستأثر على مادته النقدية ، أو تستحوذ على اهتمامه ، ولم يبلغ فيه ما وصل إليه الآمدي قبله ــ على سبيل المثال ــ فإذا عَنَّ له معنى من المعاني ، كان قد نظم فيه شاعران أو أكثر من ذلك ، دفعه ذوقه النقدي إلى استدعاء المعايير الجمالية ، والاحتكام إليها ؛ لغرض الحكم لهذا النصِّ أو ذلك ، من غير الأخذ بنظر الاعتبار القيم الأخرى ((فالشاعر الذي يجيد أداء الفكرة في قالبٍ فنيٍّ جميل ، أو يرتفع بالمعنى إلى مستويات عليا ، فيخرجه من صورة تعكسه على حال أحسن مما هو عليه في الواقع ، ثمَّ يكسوه من اللفظ ما عذب وسهل ، هو الشاعر الأجدر بالتقديم والتفوق)) (٧). وقد تطلب منهج ابن بسام في تقدير القيمة الفنية للشعر معالجة مكونات النص وعناصره ، ونتج عن ذلك أحكام نقدية لا تند عن دائرة هذه المحاور والمركبات ، إذ تركزت حول معنى من هذه المعاني ، أو صورة من تلك الصور ، أو تشبيه مصيب ، أو استعارة غريبة ، أو

خيال سام ، وغير ذلك من المحاور المهمة التي استند إليها الناقد في عمله . ومع ذلك ، فقد نأى بنفسه عن التبعية ، وخرج عن الأعراف النقدية التي دأب عليها علماء النحو واللغة ، فضلاً عن ذلك ، فإنَّ أحكامه النقدية تتقاطع مع أحكام النقاد الآخرين في العصور الأولى من العملية النقدية ، التي تتمحور حول مبادئ عامة ، تجعل هذا البيت أمدح بيت قالته العرب ، وذلك أهجا بيت ، وثالث أغزل بيت وهكذا ، وهذا الشاعر أشعر الناس أو أشعر الإنس والجن ، كما حصل للأعشى وحسان والخنساء في حكومة النابغة بينهم ، وقد تجلَّى خروجه على أحكام النقاد السابقين وقواعدهم من خلال اتخاذه موقف محايد ، إذ راح ينتقد عليهم نظرتهم إلى القدماء من المشارقة نظرة إجلال وإكبار ، قائلاً : (وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخصَّ أهل المشرق بالإحسان) (٨) . ولكن المهم عنده في الحكم النقدي هو غرابة المعنى ، وكثرة شعر الشاعر، وما يرتبط به من خبر ، مع الأخذ بنظر الاعتبار غنى ذلك الشعر بالصور الفنية الرائعة ، بيد أنَّه ـــ أحياناً ـــ لا يعتمد الجودة معياراً لذكر الرجل ، بل يذكره إذا طبقت شهرته الآفاق ، وقد أعرب عن ذلك ، بغض النظر عن جودة شعره أو رداءته ، أو تأخُّر زمانه أو تقدُّمه ، فيقول في هذا الصدد : (وتحرَّيتُ في الجملة حُرَّ النَّظام ، وتخيَّرتُ جيِّد الكلام ، وجرَّدتُ جملة الفصول والأقسام ، وإذا مرَّ معنىً غريب ، وتعلَّق به خبرٌ مشهور ، وأمكنني فيه شعر كثير ، مددتُ أطنابه ، ووصلتُ أسبابه ، وقد أذكرُ الشاعر الخامل ، وأنشدُ الشعرَ النازلَ ، لأربٍ يتعلَّقُ به أو لخبرٍ أذكره بسببه ، وقد أذكرُ الرجل لنباهة ذكره ، لا لجودة شعره ، وأقدِّمُ الآخرَ لاشتهار إحسانه ، مع تأخُّر زمانه) (٩) .

الموازنة بين النصوص تطبيقاً :

لعَلَّ أوَّلَ أمر استوقفه في ميدان الموازنة نظم سليمان المستعين شعراً عارض به أبياتاً ثلاثة لهارون الرشيد ، وكلا الشاعرين يعالج موضوعاً واحداً أو معنى واحداً ، ذلك هو فن الغزل ، وهو ما أتاح له فرصة لمعاينة هذين النصين ، لكنه لم يفصح عن مركبات هذين النصين وتعيين عناصر الجودة فيها ، وبيان العيوب وتشخيص العناصر التي قد تؤدي إلى استحسان نصٍّ ، واستقباح الآخر ، وهذا ما يتعين عليه أن يتبعه في المفاضلات الشعرية ، في ضوء المنهج الجمالي الذي ترسَّم خطاه ، إذ دأب على تسجيل ملاحظاته النقدية حول نص سليمان الإبداعي بشكل عام وشامل ، من دون التدقيق في التفاصيل الفنية التحليلية ، ومن جهة أخرى مهد لحكمه النقدي بحديث عن شخص مبدعه ، منوهاً بمنزلته ، مشيداً بها ، وفي بعض الأحيان يميل إلى عدم ذكر اسم الشاعر في العديد من النصوص الشعرية التي يروم معالجتها كشواهد في قضايا كثيرة ، فيقول ــ مثلاً ــ : ((وقال الآخر ، أو فقال أحد أعيان العصر)) وهذا المنحى قد سلكه الجاحظ من قبل ، وقد عبر عن هذه الظاهــرة د. يوسف غيوه ، قائــلاً : ((وهذا سلوك منه يرمي إلى إيصال إشارة إلى المتلقّي مفادها أنَّ شخص الشاعر لا يهمُّ ، بقدر ما يهمُّ شعره ، فإذا كان هذا الأخير جيداً ، كان جديراً بالتقديم والثناء . وأمَّا إذا كان رديئاً فلن يرفع من قيمته اسم قائله ، أو حسبه ، أو سلطانه أو عصره))[١٠] .

ومما يمكن ملاحظته أنَّ ابن بسَّام إذا مرَّ به شعر نادر مستغرب ، يصدر حكماً طريفاً مستطرفاً ، كما سنذكر ذلك في أثناء معالجتنا لهذه الدراسة ، واعتمد على الإيجاز في نقل الأخبار ، فضلاً عن ذلك فهو متقن لصنعته ، فتمخض عن

آرائه النقدية جملة كبيرة نظمها هذا السلك ، وشَّح بها النصوص الشعرية ، مع وصف قائليها في أغلب الأحيان ، كما سبق ذكره في ترجمته لابن شهيد إذ يقول : (كان أبو عامر ابن شهيد شيخ الحضرة العظمى وفناها ، ومبدأ الغابة القصوى ومنتهاها ، وينبوع آياتها ، ومادة حياتها ، وابن ساستها وأساتها ، ومعنى أسمائها ومسمياتها ، نادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام ، وإن جدَّ فزئير الأسد الضرغام ، نظم كما اتسق الدر على النحور ، ونظم كما خلط المسك بالكافور ، إلى نوارد كأطراف القنا الأملود ، تشقُّ القلوب قبل الجلود ، وجواب يجري مجرى النفس ، ويسبق رجع الطرف المختلس) وهكذا نلاحظ أنَّ ابن بسَّام شديد الميل إلى الأندلسيين ، من خلال إفراطه في الإشادة بهم . وما أكثر الأحكام النقدية في كتاب الذخيرة ، التي تحتوي على آرائه بخصوص الشعراء المشارقة ، وأخرى لشعراء أندلسيين ومغاربة ، كموازنته بين شعر لابن المعتز وابن برد الأصغر الأندلسي ، ، وتتكرر هذه الأحكام النقدية كثيراً ، إذ إنَّ أحد أطرافها شاعر مشرقي ، والطرف الآخر أندلسي ، مثال على ذلك هي تلك الموازنة المباشرة بين عملين ذاتيين ، والتي رأى فيهما تأثير أحدهما على الآخر ومن أخذ المعنى فأجاد فيه ، وأناف على من سبقه ، مشيراً إلى قول الإمام علي (عليه السلام) إذ يعلق على قصيدة قائلاً : (وله من أخرى ، وهي قصيدة فريدة فضح بها الأوائل ، وصرَّح بها عن كل طائل ، والمرء مخبوء تحت لسانه وشرفه بنفسه لا بزمانه ، وأوَّلها :

ساروا ومسك الدياجي غير منهوبِ وطُرَّةُ الشرق غُفْلٌ دون تهذيب
على ربى لم يزلْ شادي الذبابِ بها يُلهي بآنق ملفوظٍ ومضـــروبِ
كالغيدِ في قُببِ الأزهار أذرعُـــــهُ قامتْ له بالمثاني والمضاريبِ

علَّق ابن بسام على هذا الوصف ، قائلاً : (وصفة ابن عبدون للذباب : أجاد فيه ما أراد ، وقد تناول هذا المعنى أبو بكر ابن سعيد البطليوسي ، فقال من قصيدة :

كأنَّ أهازيج الذباب أساقفٌ لها من أزاهير الرياض محاريبُ

وأخذه ابن عبدون من قول ابن الرومي يصف روضاً :

وغرَّد ربعيُّ الذبابِ خلالَــه كما حثحث النشوان صنجاً مشرَّعا

وكانت أهازيج الذباب هنالكم على شدوات الطـــير ضرباً موقَّعا

وهكذا يتابع ابن بسَّام المعنى عند كثير من الشعراء ، حتى يصل إلى من أبدعه ، إذ يقول ، وإنما اخترعه أوَّلاً عنترة بقوله :

فترى الذباب بها يُغنِّي وحده هَزجاً كفعلِ الشارب المُتـــــرنِّم

غَرِداً يحكُّ ذراعه بذراعــه فعل المُكبِّ على الزناد الأجـــذم

وهذا من التشبيه الذي ما له شبيه ، ولم يجسر عليه أحد ، وقد قال الجاحظ : وجدنا المعاني تقلب ويؤخذ بعضها من بعض إلاَّ قول عنترة في الذباب) . (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ٥٢٢ ــ ٥٢٦) .

يبدو أنَّه عرض في هذا النص النقدي أنواعاً من (المعاني التي ذكروا مما انفرد به كل واحد من الشعراء ، لا يكاد يتناولها حاذق إلاَّ قصر ، إلاَّ أن يزيد زيادة تظهر ، ولذلك ما تحامى الناس أشياء كثيرة من المعاني التي أخذت حقها من اللفظ ، ولم يبق فيها فضلة تلتمس ، والقرائح تتفاضل . (الذخيرة ، ق٢ ، ص٥٢٨) . ولكنه على الرغم من إعلانه إيمانه بأفضلية عنترة ، لكنه يعترف أنَّ الأندلسيين أقل شأناً أو قيمة من المشارقة . ومن الجدير بالذكر أنَّ ابن بسَّام لم تقتصر موازنته على الشعراء الأندلسيين والمشارقة ، بل أخذ – أيضاً –

يوازن بين شاعر أندلسي وآخر من أبناء بلده، فمثلاً ، في ترجمة أبي تمام غالب يعرف بالحجَّام ، يؤكد ابن بسَّام أنَّ هذا الشاعر كان يقلد الرمادي في طريقته ، ولكنَّه لم يكن موفقاً في ذلك ، وإليك ما يدلُّ على منهجه إذ يقول : (وكان معدوداً في شعراء عصره ، إلاَّ أنَّه كان متخلفاً في شعره ، لأنَّ طبعه كان ينبو عن السهل ، ولا يلحق بالفصيح الجزل ، وربَّما ندرت له أبيات في النَّظام ، كرمية من غير رام ، ووجدته قد سلك في الأوصاف طريقة الرمادي ، فغرق في بحبوحة ذلك الوادي) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق٣م٢ / ٨٢٠ . وكذلك ينظر الرسالة الموسومة ب (ابن بسَّام مؤرخاً أدبياً ، ناقداً ، أسلوبياً ، مع دراسة كتاب الذخيرة) ص : ١٥٢ . فهو واحد من أبرز الناقمين على أهل المشرق ، علماً أنهم يمثلون التراث العربي الأصيل ، وهم في الوقت ذاته أساتذتهم ، وأن الشرق هو منبع الثقافة والعلم والحضارة والفن والأدب ، ليس هذا فحسب ، بل شمل كل مظاهر الحياة الاجتماعية والعمرانية والعلمية ، وليس أدلَّ على ذلك من فضل زرياب على الحضارة الأندلسية بكل مرافقها .

وعلى الرغم من مواقفه التي بثَّها في كتابه إزاء المشارقة ، إلاَّ أنَّه في معالجته لشعرهم ذي الصفة الإبداعية كان منصفاً أقصى غاية الإنصاف ، شأنه في ذلك شأن الجاحظ في تعامله مع الشعراء القدماء والمحدثين ، فقد لا يكتفي ابن بسَّام بالإشارة إلى مواضع الجودة في نصوص المشارقة ، بل إنَّه يتجاوز هذا الحكم إلى ما هو أبعد من ذلك ، حيث لم يتوان عن تفضيلهم على شعراء الأندلس ، إذا رأى ذلك أنَّه بحقٍّ يحتاج إلى التقديم . كما سيتضح فيما سنورده من أحكام نقدية أخرى ، سواء ما يتعلق بالشعر أم بالشعراء ، ونود أن نوضح أنَّه يمهد للأدباء والكتاب والشعراء والفقهاء والأمراء وغيرهم بالثناء على

أدبهم ، ينقل عن ابن حيان قوله في ترجمة عبد الرحمن المستظهر بالله : (كان عبد الرحمن هذا لبقاً ذكياً ، وأديباً لوذعياً ، لم يكن في بيته يومئذٍ أبرعُ منه منزلة ...)[١١] .

وذهب به العُجبُ أيمَّا مذهب من أدباء الأندلس ، فلا يكاد واحد منهم تخلو ترجمته من إطراء ابن بسَّام ، وهذا زُخْرُفٌ من الكلام ، لا طائل وراءه ، أو وضع على غير حاصل ، وألقابُ ونعوتُ نسبت لغير أصحابها ، كقوله في عبد الرحمن المستظهر : ((وكان على حداثة سنَّه ذكياً يقظاً لبيباً أديباً حسن الكلام ، جيِّد القريحة ، مليح البلاغة ، يتصَّرف فيما شاءهُ من الخطابة بديهة ورويَّة ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادةً))[١٢] .

وهكذا يذكر ابن بسَّام كلَّ ما يتعلَّق بالأديب من صفات علمية أو أدبية ، وما يندرج أثناءه من أحكام نقدية ، سهلة المثول في الأفهام وميسَّرة ، والتي تحمل في ثناياها تصورات ابن بسَّام عن الشعر والشعراء ، وقد سبق بعضها أن تداوله النقاد من قبل في أحكامهم النقدية المستعملة ، ومعاييرهم المألوفة المقررة ، وهو أحد أنصار النزعة الأندلسية ، فانساق هو نفسه نحو الإقرار بأفضلية الأندلسيين.

ونحن حين شرعنا بهذا البحث ، مع ما كنَّا نعلم أنَّه عملٌ طويلٌ وشاق ، لكنَّه لا يعتاص على الأذهان ، ولا يتأبى على ذوي العقول النَّيِّرة ، إلاَّ على من رين على قلبه ، وطبع بالجهل على لُبِّه ، ولا بُدَّ من إثارة الاهتمام بالملامح النقدية عند ابن بسَّام في الذخيرة ، وما بثَّهُ فيها من مصطلحات نقدية ، تنهض بتأسيس أو إرساء أحكام نقدية ، لعل قرَّاء الذخيرة يُلفوا فيها كنزاً من العلم ، وأدباً جمّاً فيه فائدةٌ وغناءٌ.

إنَّه من الضروري بمكان ، وبفضل هذه الأحكام النقدية ، سنتمكن من تمييز الملامح النقدية المشكلة في هذه المقولات النقدية السائدة في الذخيرة ، ويكفي أن ننطلق من هذه المسلمات النقدية، لنلتمس سمات هذه الملامح ، لقد أصبح ـــــ الآن ـــــ ممكناً أن نقدم تصوّراً نهائياً لما نطلق عليه بالملامح النقدية عن ابن بسَّام في الذخيرة .

وعلى الرغم من ذلك تبقى مسألة مهمة تتطلب توضيحاً ، وهـــي إنَّه لمن المهم أن نستخلـــص ــ الآن ــ النتائج الأولية لهذه الملامح النقدية على هذا النحو :

لقد أصبح واضحاً أن هذه الأحكام النقدية إنها مجرد معايير محددة استقاها الناقد من ملاحظاته حول النصوص . وفضلاً عن ذلك ، فإن الأحكام في الموازنة التي نهض بها ابن بسَّام ، بيَّنت وجود هيمنة النزعة الأندلسية على مجمل أحكام الناقد . فالحكم النقدي الذي يبديه ابن بسَّام قاطع لا يقبل المواربة أو التأويل ، فالشاعران يصوران معنى واحداً . رأى ابن بسَّام إن ما كان للشاعر الأندلسي أشعر مما للشاعر العربي أمثال : دعبل بن علي الخُزاعي ، والكُميت بن زيد الأسدي ، والسيد الحميري وكُثيِّرُ الخزاعي ، وقد مهد ابن بسَّام لهذه القصيدة ــ وهي من نَظم ابن درَّاج ، بقوله : ((وله من أخرى في علي بن حمود ، قال ابن بسَّام : وهذه القصيدة له طويلةٌ ، وهي من الهاشميات الغُرِّ ، بناها من المِسْكِ والدُّرِّ ، لا من الجصِّ والآجرِّ ، لا بل خلّدها حديثاً على الدَّهر ، وسرَّ بها مَطالعَ النُّجومِ الزُّهرِ ، لو قَرَعَتْ سَمْعَ دِعْبل بن علي الخُزاعي[١٣]، والكميت بن زيد الأسدي[١٤] ؛ لأمْسَكا عن القولِ ، وبَرئا إليها من القُوَّةِ والحولِ ، بل لو رآها السّيِّد الحميري[١٥] ، وكُثيِّر الخزاعي[١٦] ، لأقاماها بيِّنةً على

الدَّعْوى ، ولتلقياها بشارةً على زَعْمِهما بخروج الخيل من رضْوى ، وقد أثْبَتُّ أكثرها ؛ إعلاناً بجلالة قدرها ، واستحساناً لعَجُزها وصدرها ، ديوان ابن درَّاج القسطلّي ١٦٠ ، وأولها :

لعَلَّكِ يَا شمـــسُ عنـــد الأصلِ شَجيـــتِ لِشَجْوِ الغريبِ الدَّليلِ
فكوني شَفيعي إلى ابْنِ الشَّفِيعِ وكُونِي رَسُولِي إلى ابن الرَّسُولِ
فإمَّـــا شَهـــدْتِ فأزْكى شَهيدٍ وإمَّـــا دَلَلْـــتِ فأهـــدى دَليـــلِ
عَلى سابقٍ فِي قُيودِ الخُطُوبِ ونجـــمِ سَنَـــاً فِي غُثاءِ السّـــُيولِ

ومن خلال ما رأينا إشادته بهذه القصيدة ، وثناءه عليها ، كان واقعاً تحت هيمنة النزعة الأندلسية ، وهي نزعة الانتصار لكُلِّ ما هو أندلسي ، وتفضيله في أغلب الأحيان ، وفي موضع آخر ، عالج فيه تجاذب أكثر من شاعر لمعنى واحد فيذكر السابق واللاحق ومن أخذه فأحسن ، ومن أخذه فقصَّر ، وهكذا يعقب على الأبيات بعد إنشادها .

ونراه ــ في بعض النصوص يقدم ــ الشاعر الأندلسي لا علـــى شاعر أندلسي أو مشرقي ، بل يفضله على لمَّة من الشعراء المشارقة ، كما لاحظنا ذلك في تعليقه على قصيدة ابن درَّاج القسطلّي في علي بن حمود . وليس في الشعر كله ، بل في قصيدة واحدة ، عالج فيها الشاعر معنىً واحداً ، هذا المعنى الذي أكد ابن بسَّام على قصور الشُّعراء فيه ، وعجزهم عن معارضة القسطلّي ، وتأديتهم له بالصيغة الفنية الجيدة نفسها التي برزَّت القسطلي فيها ، ولا يخفى ما لابن بسَّام من بعد مرمى في تفضيله هذه القصيدة على قصائد الشعراء الذين ذكرهم .

ويتابع ابن بسَّام المعنى الواحد عند أكثر من شاعرٍ مشيراً إلى من أخذه ، ولا يقصد الطعن على فاضل ، ولا التعصب لقائل على قائل . ففي قصيدته (رقم ٣٩ من ديوان ابن درَّاج ص٢١٣ وما بعدها) التي مدح بها منذر بن يحيى التجيبي عام ٤٠٨م ، يقول فيها :

لبَّيكَ أسْمعنا نِداكَ ودُونَنا نَوْءُ الكواكِبِ مُخْوِياً أوْ مُمْطِرا

ومنها :

خُوصٌ نَفَخْنَ بنا البُرى حَتَّى انْثَنَتْ أشلاؤُهُنَّ كَمِثْلِ أنْصافِ البُرَى
للهِ أيُّ أهِلَّةٍ بَلَغَتْ بنا يُمْناكَ يَا بَدْرَ السَّماءِ المُقمرَا
ورمى عَليَّ رداءهُ منْ دُونِهم مَلِكٌ تُخُيِّر للعُلا فَتَخَيَّرا
كَلّا وَقَدْ آنستُ من هُودٍ هُدىً ولقيتُ يعرُبَ فِي القُيُولِ و حِميَرا
وأصَبتُ فِي سَبأٍ مُورَّث مُلكِها يَسبي المُلوك ولا يَدُبُّ لهَا الضَّرا
فكأنَّما تابَعتُ تُبَّعَ رافِعاً أعلامَهُ مَلكاً يدينُ لهُ الورى
والحارِثَ الجَفنيَّ ممنوعَ الحِمى بالخيلِ والآسادِ مَبذولَ القِرى
وحَطَطْتُ رحْلي بَيْنَ نارَيْ حاتِمٍ أيام يقري مُوسِراً أوْ مُعسرا
ولقيتُ زَيد الخَيلِ تَحْتَ عَجاجَةٍ يكسو غلائِلُها الجِياد الضُّمَّرا
وعَقَدْتُ فِي يَمنٍ مَواثِقَ ذِمَّةٍ مشْدودةِ الأسبابِ مُوثَقةِ العُرى
وأتيت مجدك وهو يَرفَع مِنبراً للدِّينِ والدُّنيا ويخفضُ مِنبرا
وَخَطَطْتُ بَيْنَ جِفانِها وجفونها حَرماً أبَتْ حُرُماتُهُ أن تُخفرا
تِلْكَ البدور تتابعتْ وخلفْتَها سعياً فكنتَ الجوهر المُتَخَيِّرا

يعلق ابن بسَّام على هذا الشعر بقوله : (معنى مشهور ، وهو في الشعر كثير ، ومنه قول بعض أهل العصر ، وهو أبو جعفر بن هُريرة التطيلي يصف إبلاً :

كأنصافِ البُرَى وَتدِقُّ عنها شَواها دِقَّةٌ تَسَعُ الخلالا

وكذلك قوله :

للهِ أيُّ أهِلَّةٍ بَلَغَـــتْ بنـــا يُمْناكَ يَا بَدْرَ السَّماءِ المُقمِرَا

كقول أبي جعفر المذكور :

كلُّ عوجاءَ كالهلال عليها كل ذي تدرأ كبدر الكمال

وأنْشِدْتُ لابن بَيَّاع السبتي :

وَرَدْتُ بها التَّنُوفَة وهي بَدْرٌ فلَمْ أصْدُرْ بها إلاَّ هِلال[١٧]

لقد غاب عن ابن بسَّام أن الأعمى التطيليَّ (ت٥٢٠هـ) ولم يكن معاصراً لابن درّاج القسطّلي (ت٤٢١هـ) ، بل أنَّ التطيلي هو الذي حذا حذو ابن درَّاج ، وكان من الواجب أن يشير إلى هذه الناحية ، ومن المقصر هنا ، ومن المجيد ، لم يذكر ذلك ، واكتفى باحتذاء ابن درَّاج للمتنبـــي (ت٣٥٦هـ) .

ولعل موقف ابن بسَّام من آراء بعض القدماء ليست محل خلاف أو طعن عليهم ، ولم يظهر ريبة أو شكاً في صحة ما يروى ، ففي تعليقه على بيت ابـــن درَّاج القسطّلي يقول ما نَصُّه :

ورمى عَلَـــيَّ رداءهُ منْ دُونِهـــم مَلِـــكٌ تُخُيِّـــر للعُـــــلا فَتَخَيَّـــــرا

أشار إلى لفظ الهذلي دون معناه وهو :

ولَمْ أدرِ مِنْ ألْقى عَلَيـــــهِ رداءَهُ ولَكِنَّهُ قَد سُلَّ مِن ماجِدٍ مَحضِ

وذكر الرواة أنَّه لا تعرف العرب رجلاً مَدَحَ من لا يعْرِفُهُ غير أبي خَراشٍ الهُذلي هذا ، وكان خراشُ وعمه عروة غَزَوَا ، فأُخذا ، وهَمُّوا بقتلهما ، فنهاهم بنو دارم ، وأبى بنو هلال إلاَّ قتلهُما، فأقبل رجلٌ من بني دارم فألقى على خراش

رداءه ، وشُغلَ القومُ بقتل عروة ، وقال الرجل لخراشٍ : انْجُ ، فنجا إلى أبيه وأخبره الخبر ، فقال الأبيات التي أوَّلهُا :

حَمِدتُ إلهي بَعدَ عُروَةَ إذ نَجا خِراشُ وبَعضُ الشَرِّ أهوَنُ مِن بَعضِ

وحكى علي بن العباس النوبختي قال : قال لي البحتري : أتدري من أين أخذ أبو نواس قوله ؟ :

ولَم أدرِ مَن هُم غَيرَ ماشَهِدَت بِهِ بِشَرقَيِّ ساباطَ الدِيارُ البَسابِسُ

فقلت : لا ، قال : من قول أبي خراش : ((ولم أدر من ألقى عليه رداءه)) قلت له : والمعنى مختلف ، قال : ((أما ترى حذو الكلام واحداً ؟))[١٨] .

وفي بعض الأحيان يورد آراء النقاد المشارقة ، دون مناقشتها ، أو الطعن فيها ، ولم يشك في صحة تلك الآراء ، فقد ورد في تعليقه على بيت القسطلي وهو جعل القسي خمولاً:

نُفُوساً حَنَتْ قَوسُ عَطفي عليها فَكُنَّ سِهامَ قِسِيِّ الخُمُولِ

علَّق على هذا البيت بقوله : (ومعنى هذا البيت كقول الرَّضي ممَّا أنشده الثعالبي :

هُنَّ القِسِيُّ مِنَ النُحولِ فَإن سَما طَلَبٌ فَهُنَّ مِنَ النَجاءِ الأسهُمُ

قال الثعالبي : وما أحسن ما جمع بين القسي والأسهم ، وما أراه سُبِقَ إليه على هذا الترتيب . ويتابع ابن بسَّام هذا المعنى عند عدد من الشعراء الأندلسيين ، قال ابن بسَّام : وقد قال بعض أهل عصرنا وهو عبد المجيد بن عبدون من جملة أبيات هي ثابتة بموضعها من هذا المجموع :

جوانِحُ كالقِسيَ رَمَتْ ثَبيراً بِفِتيانٍ ــ أقِلَّني ــ بل نِبالِ

وقال أبو العرب الصقّلي :

وَحَطَّ بنا عن ناجياتٍ كأنَّها قِسيٌّ رَمَتْ مِنَّا البلادَ بأسْهُمِ[١٩]

فابن بسَّام الناقد والأديب الطلق لم يكن أسير الأحكام التقليدية في مواقفه النقدية ، ومقارباته الحكمية ، فهو على الرغم من إلمامه بآرائهم ، وتأثره بهم في بعض المواطن ، إلاَّ أنَّه كان ناقداً محايداً ، ذا خصوصية نابعة من قيمه ومثله ومنبثقة من ثقافته العريضة الواسعة ، لم تسمح له بأن يصدر أحكامه على النصوص الشعرية فحسب ، بل منحته ثقةً بالنفس لمناقشة آراء النقاد الآخرين ، وإبداء آرائه فيها ، وموافقتها حيناً ، أو معارضتها حيناً آخر ، وهذا الموقف شبيه بموقف الجاحظ الناقد والمفكر الحر من آراء شيوخه كأبي عبيدة ومن هو أخطر منه ، اتخذ موقفاً معارضاً لبعض أحكامهم أو رفضها[٢٠]. ثم الاستعانة بأحكامه العديدة التي يعوِّلُ عليها بما ، ينسجم ومنهجه ، ويتواءم ورؤيته النقدية ، كما فعل في موقف الثعالبي حيث تبنَّاه ، واعتمد عليه في تحقيق صحة قضية من القضايا التي هي (الجمع بين القسي والأسهم) ، ويعدُّ هذا ـــ بحقٍّ ـــ اعترافاً بجهود الثعالبي في هذا الشأن .

فالمقصدية عند ابن بسَّام تتجلَّى في نزوعه وتوقه نحو موضوع البديع الذي هو ذو قيمة ، وهو أيضاً قيم الأشعار وقوامها ، كما يقول قبل قليل . من هذا المنطلق يعول ابن بسَّام على بعض النقاد المهرة ، في المفاضلة بين الأشعار ، وبالعودة إلى النصوص التي أوردها ابن بسَّام، يمكن أن نطلق على هذا النمط من العلاقة أو الاقتباس ((بجذر النصوص وتعالقها ، يرى باختين (أنَّ الكلمات التي نستعملها هي دائماً مسكونة بالأصوات أخرى)))[٢١] . وهذا يعني ـــ بأيَّة حال من الأحوال ـــ ارتباط النصوص وتعالقها بعضها مع البعض ، فلا يكاد نص يخلو من مرجعية ثقافية دينية أو أدبية أو فنِّية .

وقد تطلب منهج ابن بسَّام في تقدير القيمة الفنية للشعر معالجة مكونات النَّصِّ وعناصره ، ونتج عن ذلك أحكام نقدية لا تند عن دائرة هذه المحاور والمركبات ، إذ تركزت حول معنى من المعاني ، أو صورة من تلك الصور ، أو تشبيه مصيب ، أو استعارة غريبة ، أو خيال سام ، والبحث عن المحاور المهمة التي استند إليها الناقد في عمله .

ومع ذلك ، فقد نأى بنفسه عن التبعية ، وخرج عن الأعراف النقدية التي دأب عليها علماء اللغة والنحو ، فضلاً عن ذلك ، فإن أحكامه النقدية تتقاطع مع أحكام النقاد الآخرين في القرون الأولى من العملية النقدية ، التي تتمحور حول مبادئ عامة ، تجعل هذا البيت أمدح بيت قالته العرب ، وذلك أهجا بيت ، وثالث أغزل بيت ، وهكذا ، وهذا الشاعر أشعر الناس ، أو أشعر الإنس والجن ، كما حصل للأعشى والخنساء وحسان في أثناء حكومة النابغة بينهم ، وتجلَّى خروجه على أحكام النقاد السابقين وقواعدهم من خلال دفعه إلى اتخاذ موقف محايد ، إذ راح ينتقد عليهم نظرتهم إلى القدماء من المشارقة نظرة إجلال وإكبار.

فالفيصل عنده هو غرابة المعنى ، وكثرة الشعر ، وما يرتبط به من خبر مع الأخذ بنظر الاعتبار غزارة ذلك الشعر ، وأحياناً لا يعتمد الجودة معياراً لذكر الرجل ، بل يذكره إذا طبقت شهرته الآفاق ، ومع ذلك يشير إليه بغض النظر عن جودته أو رداءته ، تأخره أو تقدمه . وفي مجال المفاضلة بين أدباء الأندلس والمشرق ، فقد استوقفته هذه المعاني ، فراح يوازن بين شاعر أندلسي في غرض معين ، مفضلاً الأندلسي على الشاعر المشرقي الذي شهد بذلك الفن وغلب على ذاته ، وقد مهد إلى ذلك ببيان سبب تفوق الناس في قــرطبة ، فيقــول : ((والسببُ في ذلك ، وتبريز القوم قديماً وحديثاً هنالك على من

سواهم ، أنَّ أفْقَهم القُرطُبي لم يشتمل قطُّ إلاَّ على أهل البحث والطلب ، لأنواع العلم والأدب ، وبالجملة فأكثرُ أهل بلاد هذا الأفق أشراف عرب المشرق افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ؛ فبقي النسلُ فيها بكلِّ إقليم ، على عرقٍ كريم ، فلا يكاد بَلَدٌ منها يخلو من كاتب ماهر ، وشاعر قاهر ، إن مدحَ ما كثيرُ عنده بكثير ، وإن هجا أجَرَّ لسان جرير ، وعدا عديَّاً عن مدح ذويه ، وأنسى جرولاً العواء في أثر قوافيه ، وإن تغزل أربى على الساحرات فنوناً ، وأزرى بالغانيات مجُوناً))[٢٢]. وبعد فراغنا من الحديث عن الموازنة والمفاضلة بين الأشعار الأندلسية وغيرها ، فلا بدَّ من معاينة مواقفه من أشعار القدماء .

موقفه من أشعار القدماء

لقد كان ابن بسَّام يؤمن بأن أشعار القدماء قد مجَّها الذوق ، وسئمتها النَّفس ، وملَّتها الطباع ، وقلَّتها السليقة ، فلا تهشُّ لها النَّفس ، ولا تأنس إليها الروح ، فعلى الرغم من اعتماده على عنصر الجمال الفنِّي في حكمه النقدي على النَّصِّ، فهو همُّه الشاغل ، ولا يرى مبرراً أن يظلَّ الشعراء مرتبطين بأشعار القدماء التي عفا عليها الزمن ، معرباً عن ذلك بقوله : إنَّ من يعتمد على أشعار القدماء ، فقد يخسر علماً وافراً ، ويفقد أدباً جمّاً وقد هجم الجاحظ ــ قبله ــ على اللغويين والنحويين من أتباع القديم ، ووصفهم بالغباء والقصور ، وذلك عندما قال : ((وقد رأيت ناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين ، ويسقطون من رواها . ولم أرَ ذلك قطُّ إلاَّ في راوية للشعر غير بصيرٍ بجوهر ما يروي، ولو كان له بصرٌ ، لعرف موضع الجيِّد ممَّن كان ، وفي أيِّ زمان كان))[٢٣].

واستمر هذا المنهج عند النقاد المشارقة ، كالقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي وقف من هذه القضيّة موقفاً منصفاً ، غير آبهٍ بالزمن أو بالجنس ، فهو لم يغضَّ من شأن الحضري أو المحدث ، ولم يرفع شأن البدوي القديم ، بل نظر بعين المنصف المتثبِّت ، وقضى بين الشعراء قضاء العادل المُقْسط ، فلا نصيب في حكمه للعصبية ، ولم يخالج نفسه التحامل ، فانقطعت بينه وبين المجاملة والتحامل الأسباب ، وفي الفصل الذي عقده للقدماء والمحدثين يقول : ((أنا أقولُ ــ أيَّدك الله ــ أن الشعر علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبعُ والرِّواية والذكاءُ ، ثم تكون الدُّربة مادةً له ، وقوةً لكلٍّ واحدٍ من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال ، فهو المحسن المبرِّز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبتُه من الإحسان ، ولستُ أفضِّل في هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلي والمُخَضْرم ، والأعرابي والمولدَّ ، إلاَّ أنَّني أرى حاجة المُحْدَثِ إلى الرواية أمسَّ ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر ، فإذا استكشفت عن هذه الحالة ؛ وجدت سببها والعِلَّة فيها أنَّ المطبوعَ الذكيَّ لا يمكنه تناولُ ألفاظ العرب إلاَّ رواية ؛ ولا طريق للرواية إلاَّ السمع ، وملاك الرواية الحفظ ، وقد كانت العرب تروي وتحفظ ، ويُعرِّف بعضُها برواية شعر بعــض))[٢٤] .

لقد كان الطبعُ هو العامل الموثوق به ؛ لأنَّ العرب تتكافأ ُ في اللغة واللسان ، وتشترك في المنطق والعبارة ، ومدار المفاضلة بينهم هو الطبع ، وحَّدة الذكاء ، ونفاد البصيرة ، وجودة القريحة ، وبعد الغور ، وعمق الفكرة ، وشدَّة الفطنة ، إلى غير ذلك من الأمور الشائعة بينهم ، دون أن يختصَّ بها شعبٌ من الشعوب ، أو يتصف بها زمن دون زمن ، فالفخامة والجزالة والقوة والمتانة موكولة بالطبع والتهذيب والعناية ، فضلاً عن التعُّمل والصنعة .

ولم يختلف ابن بسَّام عن هذا التوجيه الذي اتبعه القاضي الجرجاني ، بل إنَّه سار على منهجه في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه ، حيث أنصف المحدثين ، ولم يسند الفضل كله للقدماء دون غيرهم ، بل أعطى المحدثين حقَّهم في الفضل ، ومع ذلك لم يبخس القدماء حقَّهم . فالفضيلة والميزة غير مقصورة على دهرٍ دون دهر ، ولم يختص بها قومٌ دون قومٍ ، ويتحقق ذلك عند المحدث الحضري ، والقديم البدوي ، ولأجله قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلَّم) : ((مَنْ بَدَا جَفَا)(٢٥) . لقد تعرَّض ابن بسَّام إلى الحداثة والقدم ؛ لتحقيق هويته وإثبات وجوده ، وإبراز ذاته ، ويرتبط هذا بتأكيد الوجود الأندلسي عامة ، مشيراً إلى أنَّ إبقاء المجتمع مستنداً ، إلى المثل والقيم التقليدية القديمة أمر غير فاعل ، وليس ذا جدوى ، ومن ثم نجده يرفض ذلك القديم ، ويدفع باتجاه الحداثة ، وأن الأندلسيين لم يكونوا قاصرين عن اللحاق بركب المشارقة . لاشك أنَّ موقفه هذه بالغ الأهمية وشديد الحساسية في الوقت نفسه ، ولنستمع إليه يقول : ((وقد كتبت لأرباب هذا الشأن ، من أهل الوقت والزمان ، محاسنَ تَبْهرُ الألباب ، وتَسْحَرُ الشعراء والكُتَّابَ ، ولم أعْرِضْ لشيءٍ من أشعار الدولة المروانية* ، ولا المدائح العامرية** ، إذا كان ابن فرج الجيّاني*** قد رأى رأيي في النَّصفة ، وذهب مذهبي من الأنفةِ ؛ فأملى في محاسن أهل زمانه ، ((كتاب الحدائق)) ، مُعارضاً لـ((كتاب الزهرة)) للأصبهاني**** ، فأضربتُ أنا عمَّا ألف ، ولم أعرض لشيءٍ مما صنَّفَ . ولا تعديتُ أهل عصري ، ممن شاهدتهُ بعُمُري ، أو لحِقَهُ بعضُ أهل دهري ؛ إذا كُلُّ مُرَدَّدٍ ثقيل، وكُلُّ مُتكرر مملول ، وقد مجَّتْ الأسماعُ : ((يا دارَ مَيَّة بالعلياء فالسَّنَدِ)) ، ومَلَّتْ الطباعُ: ((لِخَوْلة أطْلالٌ ببُرْقةِ ثهْمَدِ)) ، ومَحَّتْ : ((قِفا نَبْكِ)) في يد المُتَعَلِّمِين ، وَرَجَعَتْ على

ابن حُجرْ بلائمة المُتكلّفين ، فأمَّا ((أمِنْ أُمِّ أوفى)) فـــ((عَلى آثارِ مَن ذَهَبَ العَفاءُ))***** .أما آنَ أنْ يصَمَّ صداها ، ويُسْأَمَ مداها ؟ وكم من نُكْتة أغْفَلَتْها الخطباءُ ، وُربَّ مُتَردَّمٍ غَادَرَتْهُ الشَّعراء ، والإحسان غير محصور ، وليس الفضلُ على زمنٍ بمقصور ، وعزيز على الفضل أنْ يُنكر ، تَقدَّم به الزَّمانُ أو تأخَّر ، ولحى الله قولهم : الفَضْلُ للمُتقدِّم ، فكم دفنَ من إحسان ، وأخْمَلَ من فلان ، ولو أقتصر المتأخرون على كُتُبِ المُتَقدِّمين ؛ لضاعَ علمٌ كثير ، وذهب أدبٌ غزير))[٢٦].

إنَّ أهمية هذا النَّص تعود إلى عَّدة اعتبارات من أهمها :

١ــ إنَّ الأندلسيين في حالة تقدم وتطور علميَّ وثقافيٍّ وأدبيٍّ وفنِّيٍّ ، وهم يسعون إلى محاكاة النماذج المشرقية من أجل تحقيق الذات ، والتفوق عليهم ، ومن ثم لا يعقل ، بأية حال ، أن يبقى الأندلسيون أسرى تلك المثل ، ومقيدين بتلك القيم والمعايير القديمة ؛ لذلك أبدعوا فنوناً طريفةً كفن الموشحات ، وابتكار قصص خيالية رائعة ، كقصة التوابع والزوابع أو شجرة الفكاهة لأبي عامر بن شهيد الأندلسي ، وقصة حي بن يقظان لابن طفيل ، وفي الوقت ذاته لم يبقوا بمنأى عن التراث العربي الخالد . بل إنهم زاوجوا بين القديم والحديث .

٢ــ إن عملية تقليد المشارقة ، لا تعني إلغاء الذات ، والانجراف وراء كل ما هو مشرقي ، ولا تعني أن أدبهم شائه اللون ، عديم السمات ، بل على العكس من ذلك أصبحت المعارضة صنواً للأهلية لمنافسة الشعراء المشارقة ، وهي قرين تحقيق الذات الأندلسية .

٣ــ إنَّ مبـــدأ المعارضة مـــن لدن شعراء الأندلس للمشارقة جعلها تستطيع أن تواجه تحديات الشعراء المشارقة ، كما حصل ليحيى بن حكم الغزال مع تلاميذ

أبي نواس ، وهو تحدٍّ متصل بالموقف من التراث والقيم والمثل والسلوكيات وهو تراث ينعت بصورة عامة ، بأنَّه يقوم على نظم تقليدية يلعب فيها القدماء الدور الأساس ، من حيث المحافظة التي تتراوح بين التشدد في القيم ، والاعتدال في متابعتها .

ويزداد الأمر أهمية في الأندلس ، نتيجة لوجود فريقين أو مذهبين نقديين رئيسين ، يؤثّران في العملية النقدية ، وهما أصحاب مذهب القدماء ، وأنصار فريق المحدثين الذي يكون ابن بسَّام واحداً منهم ، ولا يخفي هذا الناقد انحيازه التام إلى كل ما أنتجته العقلية الأندلسية من علومٍ وآداب وفنون ، معززاً وجهة نظره بقول عبد الجليل بن وهبون ، وموقف أبي علي القالي البغدادي الوافد على الأندلس في هذا الزمان ، وكان ابن بسَّام يقول إنَّه كان يتعجب من منظومهم ومنثورهم ، ونستمع إليه يعبر عن ذلك بقوله : ((وقد أودعتُ هذا الديوان الذي سمَّيته بـــ(كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) من عجائب علمهم ، وغرائب نثرهم ونظمهم ، ما هو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتُّع والرقبة ، وأشهى من معاطاة العُقار على نغمات المثالثِ والأزيار ؛ لأنَّ أهل هذه الجزيرة ــ مذ كانوا ــ رؤساء خطابة ، ورؤوس شعر وكتابة ، تدفقوا فأنسوا البحور، وَأشْرقوا فباروا الشموسَ والبدور ، فذهب كلامهم بين رقَّة الهواء ، وجزالةِ الصَّخرةِ الصماء ، كما قال صاحبهم عبد الجليل بن وهبون يصف شعره :

رَقيقٌ كما غَنَّتْ حمامة أيْكةٍ وجزلٌ كما شَقَّ الهواءَ عُقابُ

... وقد حكى أبو علي البغدادي الوافد على الأندلس في زمان بني مروان قال : لما وصلتُ القيروان وأنا أعتبر من أمُرُّ به من أهل الأمصار ، فأجدهم درجاتٍ في الغباوة ، وقلّة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، حتَّى

كأنَّ منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم مُحَاصَّةً ومُقايسة . قال أبو علي : فقلت : إنْ نَقَصَ أهلُ الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم ، بقدر نُقصان هؤلاء عمَّن قبلهم ، فسأحتاجُ إلى تُرجمان بهذه الأوطان .

قال ابن بسَّام : فبلغني أنَّه كان يصلُ كلامَهُ هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق في ذكائهم، ويتغطَّى عنهم عند المباحثة والمفاتشة ، ويقولُ لهم : إنَّ علمي علمُ روايةٍ ، وليس بعلم درايةٍ ، فخذوا عني ما نقلت ، فلم آلُ لكم أن صححت))[٢٧] .

فعلى الرغم من انحيازه التام للأندلسيين وأدبهم وعلمهم ، لكنَّه لا يسقط الشعر المشرقي ، ولا يهمل إنتاجهم ، بسبب تعصبه لأهل بلده ، فإنَّ الجودة الفنِّية هي جوهر نقده ، ممَّا يدلُّ على أنَّه مدرك بحقيقة فنِّ الأدب سواء أكان مشرقياً أم أندلسيَّاً ، ورؤيته هذه يؤكدها كثيرٌ من أحكامه النقدية ومواقفه الأدبية إزاء العديد من النصوص الإبداعية ، فهو لم يُغفل عناصر الجودة أينما كانت ، ولعلَّ موقفه من أشعار المتنبي أو أبي تمَّام شاهدُ عدل على استقامته وإنصافه ، حيث فضَّل بعض أشعارهما على أشعار الأندلسيين في الموضوع الواحد ، ويعدُّ ذلك أوضح برهان على نزعته النقدية ، كل ذلك يستند على حذق الصنعة ، وصحة طبعه ، وإن تأمَّلت آراءه النقدية، وجدتها تتضمَّن مواقفه الصريحة من المبادئ التي ينبغي أن تعتمد عليها آراؤه النقدية وأحكامه ، وما هو الطريق الذي ينبغي على أصحابه احتذاؤه ، علاوة على ذلك ، فابن بسَّام يتَّسم بالموضوعية ، والتزامه بالمقاييس النقدية الفنِّية ، لتقييم النصوص الشعرية ، ويثير أموراً بالغة الخطورة ، نذكرها فيما يلي :

القضية الأولى : هي بيان الكيفية التي جمع فيها مواد كتابه فيما يتعلق بحالته الشخصية ، أو ما يخص تلك المواد ، ونوع الخط الذي كتبت فيه ، فضلاً عن الخطأ اللغوي والنحوي ، وقد أشار إلى ذلك بقوله : ((ولعَلَّ بعضَ مَنْ يتصفَّحه سيقول : إنِّـــي أغفلتُ كثـــيراً ، وذكرتُ خاملاً ، وتـــركت مشهـــوراً ، وعلى رسله ، فإنَّما جمعتـــهُ بين صعـــبٍ قد ذلَّ ، وغَـــرْبٍ قد قَلَّ ، ونشاط قـــد قلَّ ، وشبابٍ ودّعَ فاستـــقلَّ ، من تفاريـــقَ كالقـــرون الخاليةِ ، وتعاليق كالأطلالِ الباليـــة ، بخطٍّ جُهَّـــالٍ كخطوط الراح ، أو مدارج النَّمل بين مَهاب الرياح ، ضَبْطهم تصحيف ، ووَضعُهم تبديل وتحـــريف ، أيـــأسُ الناس منها طالبهُا ، وأشدُّهم استـــرابة بها كاتبها ، ففتحت أنا أقفالها، وفضضتُ قيودَها وأغلالها ، فأضحت غاياتِ تبيين وبيان ، وَوَضَحَتْ آياتِ حُسْنٍ وإحسان))[٢٨] . وقد ضمن كتابه كثيراً من أخبار الأندلسيين ، مبيناً في ذلك غرضه من ذلك ، دون أن يتعدى حدود النَّصِّ الشعري ، ولا يخضع النَّصِّ لعوامل غير فنية في الحكم النقدي ، وتقويم الخطاب الشعري ، فلا يتعصب لعرقٍ أو زمان أو مكان ، وهذا برهان على قدرة الناقد على التمييز بين الجيد والرديء ، وقد ذكر ابن بسَّام ذلك : ((على أنَّ عامَّة من ذكرتهُ في هذا الديوان ، لم أجد له أخباراً موضوعة ، ولا أشعاراً مجموعة ، تَفْسَحُ لي في طريق الاختيار منها ، إنَّما انتقدتُ ما وجدتُ ، وخالستُ في ذلك الخمول ، ومارستُ هنالك البحث الطويل ، والزمان المستحيل حتى ضمنتُ كتابي هذا من أخبار أهل هذا الأفق ، ما لعلِّي سأربي به على أهل المشرق ، وما قصدتُ به ــ علم الله ــ الطَّعنَ على فاضل ، ولا التَّعصبَ لقائلٍ على قائلٍ ؛ لأنَّ من طلبَ عيباً وَجَدَه ، وكَلٌّ يعمل باقتداره ، وبجَهدِ اختياره ؛ وما أَغْفِلَ أكثر مما كُتِبَ وحُصِّلَ ؛ والأفكارُ مُزْنٌ لا تَنْضَبُ ،

ونُجُومٌ لا تَغْرُبُ ، ومَن يُحَصِّلُ ما تثيرُه القرائح ، وتَتقاذف به الجوانح[٢٩] ؟ وقد قال أبو تمَّام :

ولَو كانَ يَفنى الشِعرُ أفناهُ ما قَرَت حِياضُكَ مِنهُ في العُصورِ الذَواهِبِ

ولَكِنَّهُ صَوبُ العُقـــولِ إذا اِنجَلَت سَحـــائِبُ مِنـــهُ أعقِبَـــت بِسَحائِبِ[٣٠]

وموقف ابن بسَّام من قضية القديم والحديث تشبه ما ذهب إليه الجاحظ حيث أعرب د. محمد أحمد العزب عن وجهة نظره من شيوخه اللغويين متهماً إياهم بأنهم لا يبصرون الحقَّ من البـــاطل ، فيقول : ((فقد بدا هنا مركَّزاً بشكل أساسي على القيمة الفنِّية وحدها ، رافضاً أن يعطي براعة التفوق للقديم على الحديث ، لمجرد قدمه ولا للحديث على القديم ، لمجرد حداثته ، وإنَّما هو معنيٌّ بتأمُّل محض بالجمال في الفن ، .. ومهما يكن من شيء ، فقـــد رفض الجاحظ أن يرفع القديم على الحديث أنَّ هذا القديم ، وهذا الحديث ، أو أنَّ هذا الأعرابي ، وهذا الموالَّد ... إن نظر الجاحظ مسلط هنا على القيمة الفنية وحدها ، وليس على الإطار الزماني الحاضن لهذه القيمة قديماً كان أو حديثاً ، وهذا نظر نقدي كان يمهد لميلاد اتجاه رشيد في فهم هذه الظواهر الفنِّية))[٣١] .

إنَّ موقف الجاحظ هذا هيأ فعلاً لنشوء اتجاه نقدي أكثر إنصافاً ، و أكثر موضوعية ، وسرعان ما تبنَّى تلامذته منهجه مهتدين بهديه ، فقد حذا ابن قتيبة حذوه ، ونهج نهجه ، وذلك عندما أشار إلى موقفه قائلاً : ((ولم يقصر الله العلم والشَّعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصَّ بهِ قوماً دون قومٍ ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسّماً بين عباده في كل دهرٍ ، وجعل كلَّ قديم حديثاً في عصرهِ ، وكلَّ شرف خارجية في أوَّله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعُّدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن

حتَّى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والعتابي والحسن بن هاني وأشباههم . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنَّه ، كما أنَّ الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدُّمه)) (٣٢) . وشبيه بما ذوكره ابن قتيبة ، ما ورد في كلام ابن بسَّام من منهج أبان فيه عن خطته في كتابه ، إذ يقول : ((لكنِّي بما أقدمت عليه ، وتصدَّيت إليه ، كالنَّسيم دلَّ على الصُّبح ، والسَّهم ناب عن الرُّمح ، ولا أقولُ إنيِّ أغْربــتُ ، لكن ربَّما بيَّنتُ وأعربتُ ، ولا أدَّعي أنِّي اخترعتُ ، ولكنِّي لعلِّي قد أحسنتُ حيثُ اتبعتُ ، وأتقنتُ ما جمعتُ ، وتألَّفتُ عَنَنَ الشارد ، وأغنيتُ عن الغائبِ بالشاهد))(٣٣).

إذن نستطيع القول : إن ابن بسَّام كان نقطة تحوِّل في تاريخ النقد العربي في الأندلس ، يسقط عرش أهل الأندلس في إتباعهم أشعار المشارقة ، ويعصفُ باحتذائهم أخبار المشارقة ، واتخاذهم إيَّاها قبلةً لهم ، وعكوفهم عليها كالأصنام ، وقراءتهم لها كالكتب المحكمة .

وينتصر ابن بسَّام لتراث قومه ، ويعتمد على النص الشعري في العملية النقدية ، فهو الحاسم في أيَّة موازنة أو مفاضلة يجريها الناقد بين النصوص ، فمن يستقري آراء ابن بسَّام . يقف على حقيقة لا مِراء فيها ، وهي أنه يستحسن الشعر الجيد أينما وجدَ ، ويكشف ما فيه من قيم جمالية فنية ، مع إحكام الصنعة وجودتها ، فهو لم يقتنع بتوجه أهل بلده نحو التراث المشرقي ، بل راح يمجد أدب الأندلسيين ، لأنَّه لم يشأ أن يتغاضى عن واقعه ، ويتجاهل التطور الحضاري واللغوي والثقافي الذي شهدته الأندلس خلال هذه المرحلة ، مما جعل

الأندلسي يفتح عينيه فيرى أموراً لم يتيسر للإنسان العربي أن يعرفها قبل قرنين أو ثلاثة من الزمن ، بكل ما تعني هذه الحياة الحافلة بكل مظاهر الرقي والتقدم العمراني والحضاري والعلمي ، حيث الدور والقصور والمساجد الضخمة والبرك والحدائق الغناء ، ألم يساعد هذا على تغيير الأذواق وتعدد أنماط الخطاب ، وتنوع وسائل التعبير عنه ؟ ، لم ينشأ ذلك محض صدفة ، بل كان وليد تفاعل عناصر ثقافية واجتماعية أفرزتها بيئة الأندلس الثقافية ، فابن بسَّام لم يتمكن من أن يغض الطرف عن تلك المنافسة بين الأندلسيين وأهل المشرق ، مع العلم أنه كان يعاصر جيلاً من الأدباء المرموقين ، الذي يستمدون ثقافتهم من التراث العربي الخالد سواء أكان في المشرق أم الأندلس ، إذن ، يمكن القول : إنَّ القرنين الخامس والسادس الهجريين شهدا تحزباً ونصرة لكل ما هو أندلسي ، يسقط الاعتقاد السائد بأفضلية أهل المشرق ، ويعصف بالسطوة المطلقة للمشرق ، ويزمجر بالهيمنة التامة أو الخضوع للمشارقة ، متخذاً من النص الشعري حكماً في أية موازنة ، وقاس النصوص الإبداعية بمعايير دقيقة ومحكمة ، فالمفاضلة والتبريز تُجرى بين الأندلسيين من جهة والمشارقة من جهة أخرى ، أو تقوم بين الأندلسيين أنفسهم ، ولا نقصد بذلك تقديم ابن بسَّام للأندلسيين على أدباء المشرق في كل الأحول ، ولكن إذا قيَّض للأندلسي أن يأتي بمعنىً يتسم بالجودة ، يحكم له بالتقدم ، بيد أنه من حيث الطبع والأفكار ، ووجود الملكات الشعرية الخلاقة فابن بسَّام يؤكد تفوق المتنبي وأبي العلاء المعري على جميع الشعراء على الرغم من أنهما استعملا كلام الأطباء والفلاسفة ، وقد عابهما على ذلك ؛ لأنَّهما ــ على الرغم من طول باعهما وسعة صدريهما ــ عكفا على كلام الأطباء والفلاسفة واستعملاه في شعرهما . (وقد

قال بعض أهل النقد إنَّه عيب في الشعر والنثر أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الأطباء أو بألفاظ الفلاسفة القدماء ، وإنِّي لأعجب من أبي الطيب على سعة نفسه ، وذكاء قبسه ، فأنَّه أطال قرع هذا الباب ، والتمرس بهذه الأسباب ، وكذلك المعري ، : كثر به انتزاعه ، وطال إليه إيضاعه ، حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه ، وحسبك من شرٍّ سماعه ، وإلى الله مآله ، وعليه سؤاله) (٣٤) .

إنَّ موقف ابن بسَّام هذا ينسجم والفكرة التي دونَّها في مقدمة كتابه ، على صعيدي المنظوم والمنثور والتي سبق ذكرها . ويبغي ابن بسَّام في هذا النَّص إثبات أمر واقعي ، وهو تفوق الشاعر الأندلسي على غيره ، وهذا في الحقيقة منافٍ لطبيعة الحال ، لأن أدباء المشارقة أساتذة الأندلسيين ، ويمكن لنا أن نقول : إن اندفاع ابن بسَّام الزائد ، وحماسه المفرط للأندلسيين ، قــد حمله بعيداً ــ إلى حد ما ــ عن الموضوعية والاعتدال والإنصاف .

وابن بسام بهذا الموقف ينبغي عليه أن ينأى بآرائه النقدية وأحكامه عن بؤرة التعصب ، لكي يرسم لنفسه مساراً يتميز بالحيدة والاستقلالية ، متبعاً في ذلك الحكم النقدي من حصول القناعة الفنية ، وما يفرزه النص الشعري من جوانب جمالية فنية ، وألاَّ يخضع للأهواء والميول والذاتيــة .

كذلك نجده يبرر موضوعيته في مجال آخر، معتمداً المعايير الفنية أساساً لأحكامه في موقفه الذي أورده في مقدمة كتابه ، إذ يقول ((وإذا ظفرت بمعنىً حَسَنٍ ،أو وقفت على لفظٍ مُسْتَحْسَنٍ ، ذكرت من سبق إليه ، وأشَرْتُ إلى من نقص عنه ، أو زاد عليه ، ولستُ أقول : أخذ هذا من هذا قولاً مطلقاً ، فقد تتواردُ الخواطرُ ، ويقعُ الحافِرُ حيث الحافِرُ ، إذ الشِّعر ميدان ، والشعراء فرسان))[٣٥] . فموقفه هذا يزيح كُلَّ لبُسٍ ، ويبدد كل شبهة تتهم ابن بسَّام

بالتعصب للأندلسيين على حساب المشرق ، وسيعربُ عن منهجه النقدي فيما بعد عندما نورد كثيراً من أحكامه النقدية ، وموازناته التي عقدها بين النصوص الشعرية أو بين الشعراء .

وقد أعرب عن منهجه في نهاية مقدمة كتابه ، محتذياً منهج الثعالبي في يتيمته ، حينما أورد جملة من الأدباء ، قائلاً : ((وإنما ذكرتُ هؤلاء ائتساءً بأبي منصور ، في تأليفه المشهور، المترجم بـــ((يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر)) . وَتَحَرَّيْتُ في الجُملة حُرَّ النَّظام ، وتخيَّرتُ جيِّدَ الكلام ، وجرَّدتُ جملة الفُصُولِ والأقسامِ ، وإذا مَرَّ معنى غريب ، وتعلَّق به خبرُ مشهور ، وصلتً أسبابه ، وقد أذكُر الشاعِرَ الخامِلَ ، وأُنْشِـــدُ الشِّعْرَ النازلَ ، لأربٍ يتعلق به ، أو لخبرٍ أذكُر بسببه ، وقد أُذكُرُ الرجل لنباهةِ ذكره ، لا لجودة شعره ، وأُقدّمُ الآخرَ لاشتهار، إحسانه ، مع تأخُّرِ زمانه))[٣٦] .

الترجيح بين المنظوم والمنثور

لقد أوضح ابن بسَّام رأيه في المفاضلة بين الشعر والنثر ، وهجم على الشعر هجوماً عنيفاً، مدعياً أن مكانه يكون دون منزلة النثر ؛ لأن المنثور أنبل حُلَّةً ، وأشرف حملاً ، ومع ذلك لم يستشهد بالآيات القرآنية ، أو الأحاديث النبوية التي تقف موقفاً متشدداً من الشعر الذي يحث على الرذيلة ، ولم يكن ابن بسَّام وحيد دهره ، في تفضيل النثر على الشعر ، فقد نهى ابن حزم الصغار من تعليم الشعر الرديء ، إذ صنفه إلى أربعة أقسام وهي :

شعر الغزل والرَقيق .

شعر التصعلك .

شعر الهجاء .

شعر التغرب ووصف المفاوز والبيد [٣٧] .

ولابن شهيد الأندلسي صاحب (رسالة التوابع والزوابع) أو (شجرة الفكاهة) موقف من الأدباء حسن ، في الفصل الذي عقده للمذاكرة مع زهير بن نمير يقول فيه : ((تذاكرتُ يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء ، وما كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وقلت : هل حيلةٌ في لقاء من أتفق منهم ، قال : حتى أستأذن شيخنا ، وطار عني ثم انصرف كلمحٍ بالبصر ، وقد أذن له ، فقال : حُلَّ على متن الجواد ، فصرنا عليه ، وسار بنا كالطائر يجتابُ الجوَّ فالجوَّ ، ويقطع الدوَّ فالدوَّ ، حتى التمحتُ أرضاً لا كأرضنا، وشارفتُ جوّاً لا كجوِّنا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ، فقال لي : حللت أرضِ الجنِّ أبا عامر ، فبمن تريد أن نبدأ ؟ قلت : الخطباء أولى بالتقديم ، لكنِّي إلى الشعراء أشوق))[٣٨] .

وقد استهل ابن بسَّام كتابه بذكر الأدباء من الكتاب ، فيقول : ((وبدأتُ بذكر الكتاب ، إذ هم صدورٌ في أهل الآداب ، إلاَّ أنْ يكون مَنْ له حَظٌّ من الرِّياسة ، أو يدعو إلى تقديمه بعض السياسة . فأوَّل من ذكرتُ من أهل قُرطُبة من كان بها من ملوك قريش في المدة المؤرخة من أهل هذا الشان ، ثم من تعلَّق بسُلطانهم ، أو دخل في شيءٍ من شأنهم ، وتلوتهم بالكُتاب والوزراء ، ثم بأعيان الشعراء ، ثم بطوائف من المقلين منهم)) [٣٩].

وله رأي سابق في هذا الخصوص ، يكشف عن موقفة من الشِّعر ، واصفاً إيَّاه بالمخادعة والتخييل والتضليل ، وهو لم يتخذه مكسباً ، ولم يَلُمَّ به إلا قليلاً ، ولنستمع إليه يبدي رأيه فيه ، فيقول : ((ومع أنَّ الشِّعْرَ لم أرْضَهُ مركباً ، ولا

اتخذتُه مَكْسَباً ، ولا ألقتُهُ مَثْوىً ولا مُنْقلباً ؛ إنَّما زُرْتُهُ لِماماً ، ولمحتُهُ تهمُّماً لا اهتماماً ، رغبةً بعزِّ نفسي عن ذُلِّهِ ، وترفيعاً لموطئ أخمصي عن محلَّه ، فإذا شعشعت راحُه ، ودأبت أقداحُهُ ، لم أذُقْهُ إلاَّ شميماً ، ولا كنت إلاَّ على الحديث نديماً، وما لي وله ، وإنَّما أكثرُه خُدعةُ مُحتالٍ ، وخلعة مُختالٍ ، جدُّ تمويه وتخييل ، وهزلهُ تدليهٌ وتضليل ، وحقائقُ العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم))(٤٠)

وللكلاعي رأيٌ في الترجيح بين النثر والشعر ذكره في كتابه (إحكام صنعة الكلام) فالمفاضلة بين المنظوم والمنثور محجَّة مسلوكة ، ومضغة ملوكة ، كثر تعاور الباحثين لها ، وتجاذبهم الحديث فيها ، ثم ذكر فضل الشعر لتحلّيه بالوزن والقافية ، ممَّا أكسبه إبداعاً ، وبالشعر يُرفع الوضيع ، ويُحطُّ من قدر الكريم ، غير أنَّ النثر آمن موقفاً ، وأنبل حُلَّةً وحملاً ، وبهذا يقول : ((إنَّ الترجيح بين المنظوم والمنثور يَمٌّ قد خاض فيه الخائضون ، وميدانٌ قد ركض فيه الرَّاكضون ، ورأيي أنَّ القريض قد تزيَّن بالوزن والقافية بحلَّة سابغة ضافية ، صار بها أبدع مطالع ، وأصنع مقاطع ، وأبهر مياسم ، وأنور مباسم ، وأبرد أصلاً ، وأشرد مثلاً ، وأهزَّ لعطف الكريم ، وأفلَّ لغرب اللئيم ، ولكنَّ النثر أسلم جانباً ، وأكرم حاملاً وطالباً ، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ((لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خيراً له من أن يمتلئ شعراً)) ولم يقل كتابة ولا خطابة ، لأن الشعر داعٍ لسوء الأدب ، وفساد المنقلب ، لأنه لضيقه وصعوبة طريقه ، يحمل الشاعر على الغلو في الدين ، حتى يؤول إلى فساد اليقين ، ويحمله على الكذب والكذب ليس من شيم المؤمنين))(٤١).

شرح الأبيات الشعرية وتفسيرها :

نستطيع أن نقول : إن ابن بسَّام ــ من خلال نماذجه الشعرية ــ لجأ في بعض الأحيان إلى شرح الأبيات الشعرية ، وإن أشار في مقدمته إلى أنَّ هذا الكتاب لم يكن مدحاً أو شرحاً أو تفسيراً ، وأكد ذلك في قوله :

((وهذا الديوان إنما هو لسان منظوم ومنثور ، لا ميدان بيان وتفسير ، أورد الأخبار والأشعار لا أفكُّ معمَّاها في شيء من لفظها ومعناها ، لكن ربما ألممت ببعض القول ، بين ذكر أجربه ، ووجه عذر أريه))[٤٢] .

وقد أكد ذلك مرة أخرى حينما أشار إلى منهجه النقدي ، موضحا اهتمامه بالبديع الذي هو قيم الأشعار وقوامها ، فلنستمع إليه يقول : (وعلى ذلك فقد وعدت أن المع في هذا المجموع ، بلمع من ذكر البديع ، وأن أمهد جانبا من أسبابه ، واشرح جملا من أسمائه وألقابه ، وإذا ظفرت بمعنى حسن ، أو وقفت على لفظ مستحسن ، ذكرت من سبق إليه ، وأشرت إلى من نقص عنه ، أو زاد عليه ، ولست أقول : آخذ هذا من هذا قولا مطلقا ، فقد تتواتر الخواطر ويقع الحافر حيث الحافر ، إذ الشعر ميدان ، والشعراء فرسان))[٤٣].

ولنستمع إلى تعليقه على بيت ابن درَّاج القسطّلي وهو :

حَتَّى بَدا الصُّبحُ مُشمَطّاً ذَوائِبُهُ يُطارِدُ اللَّيلَ مَوْشِيّاً أكارِعُهُ

قال أبو الحسن بن بسام : قوله ((موشيا أكارعه)) جعل ذوائب الصبح مشمطة من ممازجة الليل له ، وجعل أكارع الليل موشية من ممازجة الصبح لها ، وجعل آخر الليل من مواخره ، وهي المتصلة بأول الصبح ، وآخر الصبح من مقادمه وهي المتصلة بأول الليل ، وأصاب في الإشارة إلى التشبيه ، لأنه أومأ إلى أنَّ الصبح كالثور الوحشي وهو أبيض ، والثيران الوحشية كلها بيض،

وأكارعها موشية خاصة ، وإنَّما ألمَّ القسطّلي في هذا بقول أعرابي يصف ليلة : خرجنا في ليلة حندس قد ألقت على الأرض أكارعها فمحت صور الأبدان ، فما كدنا نتعــارف إلاَّ بالآذان))[٤٤] . ويرسم الشاعر هنا لوحةً للثور الوحشي ، وقد وشّي بقوائم بيضاء وقد ألجأه المطر والريح البارد إلى شجرة أرطأة ليلاً ليبيت تحتها وهذه الصورة قديمة في الشعر العربي ، ومن المشاهد الرائعة ما نظمه بشر بن أبي خازم الأسدي ، وكان الشاعر يلم بصورة الثور وهيأته ولونه ، وحركاته مستقصياً جميع جوانبها ، ومستحضراً كلَّ أطرافها ، وتكاد تكون هذه الصورة عامة عند أغلب الشعراء ، فيطالعنا بشر بتدرجات اللون الأبيض ، مركزاً عليها حينما يرسم لوحته لثوره قائلاً :

فَباتَت عَليهِ ليلةٌ رَجَبِـيَّـــةٌ تُكَفِّئُــهُ ريــحٌ خَريــقٌ وَتُمطِـــرُ

وَباتَ مُكِبّاً يَتَّقيها بِــرَوقِــهِ وَأَرطاةِ حِقفٍ خانَها النَبتُ يَحفِــرُ[٤٥]

وهذا المشهد يذكرنا بأبياتٍ لأبي ذؤيب الهذلي في حديثه عن لوحة ثوره الذي أفزعته كلاب الصيَّاد الضارية حينما سمع نبأتها ، إذ قضى ليلته تحت شجرة الأرطأة ، وما أن بزغ نور الفجر حتى جفل لسماعه نباح الكلاب ، إذ يقول في هذه اللوحة الفنِّية الرائعة :ــ

وَالدَهرُ لا يَبقى عَلى حَدَثانِــهِ شَبَــبٌ أَفَزَّتــهُ الكِلابُ مُــرَوَّعُ

شَعَفَ الكِلابُ الضارِياتُ فُؤادَهُ فَإذا يَرى الصُبحَ المُصَدَّقَ يَفزَعُ

فالتدرج اللوني للون الأبيض واضح ، إذ نلحظ تجلياته في توشية أكارعه ، تتتابع صورة الثور الموشَّى بالبياض ، وهنا نحن نجد أنَّ الشاعر قد رسم لوحته بالاعتماد على عناصر رئيسة هي الليل والثور الوحشي ذو الأرجل الموشَّاة .

وإذا مرَّ به معنى طريف أشار إليه ، وأعرب عن رأيه فيه ، كما هو الحال في تعليقه على بيت القسطّلي قال ، قوله :

فيا ضَلالَ نُجومِ اللَّيلِ إذْ عَدِمَتْ بَدْرَ السماءِ وَفِي حِجري مَضاجِعُهُ

من مليح المعاني ، وقد أخذه إدريس بن اليماني ، فقال من جملة أبيات هي ثابتة في موضعها من هذا المجموع :

بدر ألم وبدر التم ممتحق والأفق محلولك الأرجاء من حسد

تَحَيَّرَ الليلُ فيه أينَ مطلعُهُ أما درى الليلُ أنَّ البدرَ في عَضُدِي

إنَّ موقفه النقدي من هذا البيت ، وتعليقه عليه ، بوصفه ((من مليح المعاني)) لم يخبرنا ابن بسام ، ما سبب ما تفتقر إليه بعض أحكامه النقدية ، التي تجعل القارئ في حيرة ، ولو سئل عن مثل هذه المقاربات النقدية ، الخالية من التفسير والتعليل . ماذا عساه أن يقول ؟

ومن خلال ما سبق ذكره من ملاحظات نقدية ، نستطيع أن نخرج بجملة ملاحظات حول هذه الموازنات والمفاضلة بين الشعراء وهي كما يلي :

١ــ يُعَدُّ موقف ابن بسام من أشعار المشارقة وتفضيل شعراء الأندلس على أساتذتهم ، دليلاً قاطعاً ــ رُبَّما لا يقبل الشك ــ على أنَّ ابن بسام يعتمد المقياس الجمالي الفنِّي كمحور أساس في عملية الموازنة ، فضلاً عن ذلك ، أنَّه يلتزم الموضوعية في أحكامه ، فعلى الرغم من نزعته الأندلسية الجامحة والمنحازة لكل ما هو أندلسي ، لم يتردد في تفضيل الشاعر المشرقي على الأندلسي ، إذا وجد أنَّ المعيار الفنِّي يتجه لصالح الشاعر المشرقي .

٢ــ التفضيل الذي تبناه ابن بسام في نقده ، يدور حول غرض واحد ، أو معنى واحد ، أي يركز على محدودية هذا التقديم ، وليس معنى ذلك أنَّه يقرُّ بإطلاقه ،

وهذا دليل على مساره النقدي في المفاضلة بين الشعراء ، والموازنة بين النصوص ، فهو لم يحذُ حذو النقَّاد القدامى الذين كانوا يصدرون أحكاماً عامة مطلقة ، كما كان يفعل النابغة وغيره ، كقولهم مثلا هذا أمدح بيت قالته العرب ، وهذا أشعر الإنس والجن وغير ذلك . يستنتج من ذلك أن ابن بسَّام يدرك تماماً ، أنَّ لكلِّ شاعر معاني جيدة ، وصوراً رائعة ، وألفاظاً شريفة ، كما له في الوقت ذاته نماذج أو نصوص مهيضة الجناح ، تحبو على الأرض ، وليست بعض صوره مجنحة أو تُحَــلِّق في السماء .

٣ــ التفوُّق في معنى من المعاني ، أو صورة من الصور أو غرض من الأغراض ، ليس ضروريا أن يتخذ كمقياس للتفوق على الشعراء الأندلسيين ، أو المشارقة ، فإحسان بن درَّاج القسطلّي في قصيدته الرائية مثلا ، لا يمكن أن يجاري قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب ، وهي :

أجارة بيتنا أبوك غيور ومِيسور ما يرجى لديك عسير

وبراعته في رسم تلك المشاهد البديعة للوداع ، لا تمنحه ــ مع ذلك ــ حق التفوق على أبي نواس في قصيدته هذه .

٤ ــ ومهما بلغت مقدرة الشاعر الأندلسي ، وسعة خياله ، وقوة ملكته لإصدار الكلام ، فإنَّه لم يتمكن أن يسمو إلى المستوى الذي بلغه أستاذه المشرقي ، أو يتفوق عليه في عموم الشعر ، ولكن ربما صدرت عن الشاعر الأندلسي بعض المعاني التي يتفوق بها على معاني الشاعر المشرقي ، ولكن هذا ليس مطلقا .

٥ــ مثل هذه المعاني و المفردات القلائل التي شهد بها الشاعر المشرقي للشاعر الأندلسي ، كما لاحظنا من الحكم الذي أصدره أبو نواس على شعر ابن شهيد ، تدلُّ بما لا يقبل الشك على ارتفاع شأن الشاعر الأندلسي ، وترفع من منزلته ،

وتجل قدره عند الشعراء النقاد ، ليس من الأندلسيين فحسب ، بل من كبار شعراء المشرق ونقاده ، كالقول الذي أصدره المتنبي بحق مليح الأندلس (ابن عبد ربه) . (يا بن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبواً)

٦ــ يتكئ ابن بسَّام في بعض الأحيان على آراء غيره من النقاد ، سواء كانت هذه الأحكام لأهل اللغة أو الأدب أو لشعراء عرفت عنهم بعض الأحكام النقدية ، لكن الأمر المهم هو ؛ هل أنَّ ابن بسَّام حريص على نسبة القول إلى صاحبه أم لا ؟ ليقف القارئ على نزاهته وإحسانه ، ويعلم أنَّ

تبنِّي ابن بسَّام لهذا الرأي أو ذاك لم يكن إلاّ لانسجامه مع موقفه في هذه القضية أو تلك . كاعتماده على مقولة الثعالبي في تعليقه على بيت الشريف الرَّضي ، وهو مما أنشده الثعالبي ، إذ يقول الرضي :

هُنَّ القِسِيُّ مِنَ النُحولِ فإن سَما طلَبٌ فَهُنَّ مِنَ النَجاءِ الأسهُمُ

قال الثعالبي : وما أحسن أن جمع بين القسيِّ والأسهم ، وما أراه سُبق إليه على هذا الترتيب)) هذا قول الثعالبي الذي سبق ذكره .

لم يقف ابن بسَّام في موازنته بين معاني الشعراء الأندلسيين والشعراء المشارقة ، بل تجاوز ذلك إلى إجرائها بين الأندلسيين وشعراء القيروان ، منتصراً لشعراء بلده ، الذين طالما عوَّدنا على سماعه أنَّه كثيراً ما يفزع لهم ، أثبت من خلال هذه الموازنة والمفاضلة أنَّه أغنى الحركة النقدية العربية القديمة بمادةٍ كبيرةٍ ، أسسها على قواعد فنِّية محصَّنة ، ((إذ إنَّه كان ينظر إلى النص الشعري معزولاً عن كل العوامل الذاتية والفكرية والعرقية))[٤٦] .

ورد ذلك في تعليقه على بيت ابن درَّاج القسطّلي إذ يقول : قوله :

فَمِنْ حُرَّةٍ جُلِيتْ بالجلاءِ وعَذْرَاءَ نُصَّتْ بنصٍّ الدَّميلِ

كقول أبي عبد الله بن شرف القيرواني من جملة أبيات :

باتَ كُرسِيَّها الجِلاءُ فَأضحَت في ثِيابِ الجِلاءِ لِلناسِ تُجلى

قال ابن بسَّام : وانتحى ابن شرف ، فيما وصف من فتنة قيروانه ، منحى القسطّلي في شكوى زمانه ، والحديث عن الفتن ، فكاثر البحـــر بوشلٍ مَشْفُوْهٍ ، وجارى الريـــح بكودنٍ لا فضل فيـــه))[٤٧].

لقد تبيَّن أنَّ ابن بسَّام قد رفع من شأن القسطلي على خصمه ابن شرف ، فأين الثماد من البحر المسجوره ، وأين الكودن من مجارات الريح ، ومن بعض ما جرى له من حكم نقدي هاهنا، حيث كان ابن بسَّام شديد الإصابة في الرأي ، لا يكاد يصدر حكماً على شاعر أو على نتاجه إلاَّ أسرع إليه النُّقاد يتلقفونه ويعتمدونه في مصنفاتهم ، وله في أحكامه مواقف نادرة عجيبة ، منها أنَّه يؤثر أهل الأندلس على غيرهم ـــــ لكنه ـــــ مع ذلك لم يغضَّ الطرف عمَّا يصدر منهم من مبتذل المعاني ومهلهلها ، وقد صبَّ في ذخيرته هذه ضروباً من النقد ، وانتزع الأحكام النقدية انتزاعاً، وألبسها كل مجيد ومحسن في صنعته ، وقد كان منصفاً في أحكامه ، وتوصل إلى آراء سديدة ، ففتح للنقاد ضروباً من النقد ، وقرن كل ذلك إلى شبهه ، ووكَّلَ بكل ذلك إلى حكم النقدة الشعرة، والكتبة المهرة .

لقد أمدَّتْهُ ثقافته الدينية بما يحتاج إليـــه من نسبة بعض معانـــي الشعراء إلـــى مصادرها الأساسية ، كالقرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف ، أو الأمثال العربية القديمة ، من دلالات البيت الشعري وتوافق لفظه ومعناه المعبّر عنه ، والصورة الشعرية ، وبنية البيت ، جاء ذلك في تعليقه على بيت من قصيدة يمدح بها ابن درَّاج القسطلّي أبا الأصبغ ِ عيسى بن سعيد القطَّاع التي أوَّلها[٤٨] .

أفي مثلِها تنبو أياديك عن مثلي   وهذِي الأماني فيك جامِعةُ الشَّمْلِ

حتى يبلغ قوله إلى هذا البيت موضع الاستشهاد ، وهو :

وأنِّــيَ فِي أفيــاءِ ظِلِّكَ أشْتَكِي   شَكِيَّةَ مُوسى إذْ تولَّى إلــَى الظِّلِّ[٤٩]

علَّق ابن بسَّام على هذا البيت ، قائلاً :

((وهذا البيت من لفظ القرآن العزيز ، وقد أقدمت على مثل هذا جماعةٌ من الشعراء من محدثين وقدماء ؛ فمن غالٍ مُتَسَوِّرٍ ، ومن آخذٍ معتذرٍ ؛ قال أبو العلاء المَعَرِّي :

كنتَ موسى وافَتْهُ بنتُ شُعَيْبٍ   غيرَ أنْ ليسَ فيكُما مِنْ فَقِيرِ

وأخذه بعض أهل عصرنا ، وهو حسَّان بن المصيصي ، فقال للمعتمد بن عبَّاد :

كبنتِ شُعْيبَ إذْ زُفَّتْ لموسى   ولكنْ للثَّراءِ هنا مَــزِيدُ

إن موقف ابن بسَّام هنا لم يتجاوز إشارته إلى ((الأخذ)) ولم يجهد نفسه في إخضاع هذه الأبيات للتحليل والدرس ، ليبدي رأيه حولها من حيث الجودة والرداءة ، وما بها من صور فنية جمالية، أو معاني مبتكرة ؛ لكي يستطيع في ضوء ذلك من تقديم هذا البيت على غيره ، وتفضيل صاحبه على الشعراء الآخرين ، بناءً على ما ورد في البيت من أفكار طريفة مستطرفة ، لكنه في بعض الأحيان ــ يحكّم موقفه الديني والأخلاقي للحكم على معاني بعض الشعراء كتعليقه على بيت المنفتل إذ يقول : ((ومن آخر من ركب هذا الأسلوب في مكابرة الحقائق ، وأضَلَّ من ذهب هذا المذهب الغريب ، من الاجتراء على الخَلْقِ والخالق ، المنفتل ، بقوله : ــ

وَقَدْ كَانَ مُوسَى خَائِفَاً مُتَرقِّباً   فَقِيراً وآمَنْتَ المَخافة والفَقْرا [٥٠]

ويؤكد موقف ابن بسَّام هذا إنَّه في كثير من ملاحظاته ، يورد بعض المصطلحات النقدية الغريبة في معالجة النصوص ، يتضح ذلك في إشارة إلى بيت ابن درَّاج القسطلي ، وهو :

ومن شيمة الماء القراح وإن صفا إذا اضطرمت من تحته النار أن يغلي

علَّق ابن بسَّام على هذا البيت قائلاً : قوله : ((ومن شيمة الماء القراح)) البيت ، هو قول ابن أبي عيينة المهلَّبي(٥١) :

ولا بُدَّ للمـــــاء من مِرْجَلٍ على النار مَوْقَدةً أن يفـــــورا

وينظر أيضاً معناه ــ من طرْفِ عليل ــ إلى بيت عمارة بن عقيل :

وما النفس الا نطفةٌ بقرارة اذا لم تكدر كان صفواً غديرها

وأخذ المعري وزاد حتى كاد يخفيه ، فقال :

والخِلُّ كالماء يُبْدي لي ضمائرَه مع الصّفاء ويُخْفيها مع الكَدَر(٥٢)

ونقول هنا إنَّ الشاعر لجأ إلى التشبيه أولاً حين شبّه بناته بسهام قِسِيٍّ ، لضعفهنَّ وهزلهنَّ ، بسبب ضيق ذات يد الشاعر ، الذي لم يستطع أن يسدَّ رمقهن ، لكثرتهن أولاً ، وللظروف الصعبة التي مرت بها العائلة والأندلس ، وهي أيام الفتنة البربرية المبيرة ، ويأبى ابن درَّاج إلا أن ينسب سهام القسي هذه إلى الخمول ، ومن هنا استعمل وسيلة متطورة في بناء الصورة الشعرية ، لما لها من قابلية على نقل المعاني المجردة الذهنية والمفاهيم التي ميدانها الفكر إلى العالم المادي المحسوس الذي يمكن إدراكه بالبصر ، وينالـه غوص الفطن ، من خلال التجسيد ، والتجسيد في المفهوم الحديث هو ((تقديم المعنى في جسد شئي ، أو نقل المعنى من نطاق المفاهيم إلى المادة والحسية))(٥٣) .

وقد عبَّر عنه قسم آخر بأنه ((إخراج المعاني والمجردات في صورة أشياء مجسدة جامدة، فيجعلها بادية جلية))[٥٤] ، وهذا الكلام ينطبق تماماً على ما ردَّه الناقد الفذّ عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة ، وكان رائداً في ذلك ، وهو يتحدث عن الاستعارة المكنية التي ترينا ((المعاني الخفية بادية جلية ... إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي خبايا العقول ، كأنَّها جسَّمت حتى رأتها العيون))[٥٥] .

إذن ، فالعلاقة بين مفهوم الخمول المجرد وسهام القسي المجسد أمام العين ، علاقة وثيقة في تركيب الصورة الشعرية ، لذلك فإن الغرض الأساس والأكثر إلفة لعمل الصورة الشعرية هو أن (تجسد ما هو تجريدي ، وأن تعطيه شكلاً حسياً (٥٦) .

إنّه يُجسد الخمول ، كمفهوم منبوذ أو ضعيف غير مرغوب فيه ، في صورة شيء نحيف هو السهام ، ولكن وقعه خطير ، يكشف الشاعر عن إحساسه ، بنحوله وقلقه ، فاضطراب السهم في انطلاقته تعكس قلق نفس الشاعر ، وعدم استقراره ووهنه وتقلّبه في البلاد من دون أن ينال ضالته من تأمين متطلبات هذه الأسرة ، إنَّ ابن درَّاج يثير فينا ــ إيحاءً الإحساس بالخمول كي نقع عليه أو نلمحه كسهام قسي رؤية عقلية ذهنية ، مع أنه في جوهره ــ أي الخمول ــ مادة مجسدة شبيهة بالسهام القسي المحنية ، وهذا أيضاً يكشف عن أو يتجلى فيه انحناء ظهر الشاعر وتقوسه لثقل وطأة السنين عليه واكتهاله .

نتائجِ البحثِ

كان لابُدَّ لنا بعد هذه الرحلة مع ابن بسَّام ومنهجه النقدي أن نستذكر أهم النتائج التي تمخض عنها البحث من مقارباته المنهجية النقدية وموازناته بين الشعراء .

إنَّ البحث في النصوص الشعرية الأندلسية وعلاقتها بنظائرها في المشرق يستند على المحاور الآتية التي تجلت لنا في ضوء آرائه النقدية ، ويمكن إجمالها بالمحاور الآتية :

أولاً ــ لقد قام ابن بسَّام بمعاينة القواسم المشتركة بين النصوص الشعرية كافة على مستوى الخطاب النقدي ، بوصفه فعلاً لغوياً أو خطاباً لفظياً ، ليقوم بتقدير القيمة الفنية لهذا النص أو ذاك، ومن ثمة موازنته بنماذج المشرقية أو الأندلسية في خطابٍ محددٍ يمارسه هذا الناقد الحصيف .

ثانياً ــ يعتمد نقد ابن بسَّام على التركيز على المقومات الأساسية التي تجعل نصاً من النصوص الشعرية متميزاً عن غيره من النصوص ، إنَّ البحث عن هذه المرتكزات المهمة التي استند إليها ابن بسَّام في نقده تحاول أن تكشف عن وجهة نظره النقدية قياساً إلى ما سبقه من مواقف وآراء نقدية ، أو ما عاصره من طروحات أدبية لذلك ، وفي ضوء ما تمت معالجته من النصوص الشعرية الأندلسية تأصلت وجهات نظره النقدية من خلال آرائه حول خصائص النص الشعري الأندلسي .

ثالثاً ــ لم يكرس الناقد ابن بسَّام جهوده على ميدان واحد من ميادين النشاط النقدي ، ولهذا تميَّز نقده عمَّن سواه بتشعب آرائه ، ولكنه من ناحية أُخرى ــ كان يتعامل مع النَّصِّ الشعري برؤية علمية مستمدة من ثقافته الواسعة الأصيلة

الرائدة ، في مجال النقد الأدبي ، وكان في كلِّ ما قذف به فكره وخلَّفه وراءه أفضل من كتب في هذا الميدان في القرن السادس الهجري ، إنَّ دراسة تراثه النقدي ، تدفعنا إلى الوصول إلى الحقيقة التي لا مراء فيها ، وذلك أنَّه لم يترك موقفاً أو فكرة في البيت إلاَّ وقد وقف عنده ، وهذا هو الذي حدا به إلى استيعاب الواقع النقدي بكل اتجاهاته وآفاقه ، وهو الذي مكَّنه من الإلمام الواعي بكل مشكلاته . فقدَّم في ضوء ذلك معالجاته وطروحاته النقدية الفذَّة من خلال النظرية والتطبيق على حدٍّ سواء .

رابعاً ــ إنَّ فكر ابن بسام النقدي وإن شغل مرحلة زمنية محددة ، إلاَّ إنَّه لا يزال فكراً حيَّاً متجدداً ، إنَّ إيماننا بهذه الحقيقة يمكِّننا من التفاعل ، بصورة أدق مع تراثه النقدي ، مما يستوجب منا أن نجيل النظر فيه ، لكشف أبعاد تجربته النقدية ، وسبر أغوارها بوعي تام ، وإدراك عميق لغرض بسطها ليستفيد منها أبناء الأمة العربية .

خامساً ــ ما قدَّمه ابن بسَّام من طروحات نقدية ، لا يجوز لنا النظر إليه على أنَّه تراث فكري مجرَّد ، إنما ينبغي توظيفه بشكل مستمر ، لأنه يمثل مشروعاً فكرياً حيَّاً متجدداً ، وبحاجة إلى معالجة شاملة وموضوعية .

هذه النتائج التي أطرحها للمناقشة لكي تُكرس الجهود لبلورة منهجية جديدة لدراسة رائد النقد الأدبي في الأندلس خلال القرن السادس الهجري ، ذلك هو ابن بسَّام الشنتريني ، لتسد فراغاً في المكتبة الأندلسية على صعيد النظرية النقدية ، التي تتكفل بترسيخ الفكر النقدي بما يحتاجه من الإلمام بالثقافة النقدية المشرقية .

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار طبيعة المناهج النقدية التي ظهرت في العصور السابقة في الأندلس ، لم نحظ برائد نقدي ــ باستثناء ابن شهيد وابن حزم ــ يتمتع بمؤهل نقدي بارع وخلاّق لترسيخ القاعدة النقدية ، كما هو الحال مع ابن بسَّام ، الذي أصبح اسمه يوحي بأنه متميز بالكلمة والمنهج والموقف الأخلاقي من التراث.

وإذا كان ما طرحه الناقد في كتابه الفذ مثار إعجاب النقاد ودهشتهم ، يعود إلى ما توَّج به كتابه من فكر نقدي بنَّه في ذخيرته ، فجعله في مصاف النقّاد الكبار الذين رصعوا جبين الثقافة العربية بدرر الفضيلة النقدية ، فكانت الكلمة ، وكان الموقف ، لذلك صار لزاماً علينا أن نقرأه في ضوء المنهج النقدي الذي صرّح به في ذخيرته الذي اختاره عنواناً لبدائع الأندلسيين وروائعهم ، إذ تولّى في كتابه هذا طرحاً مُصاناً على صعيد النظرية والمنهج ، بما قدَّم من البراهين الوافية لبيان وجهة نظره في الحكم على النص الشعري الأندلسي والمشرقي ، وهكذا فقد تميزت آراؤه النقدية بالجرأة ، وقوة الحجَّة ، بالاستدلال والموضوعية بالنقد والإحاطة بكل مفردات الفكر النقدي وبالأسلوب الفذ الفائق الذي اتسم بالوضوح والسهولة والمتانة .

وإذ يختتم مقدمته ببحثٍ عن التكسب بالشعر يعمق الإحساس بضرورة عدم ممارستها بوصفها عيباً أخلاقياً ، وقد أشار إلى إنَّه صاحب منهج محدث في نقد الشعر ، لأنه جاء بالجديد، واختلف في الكثير من آرائه وأفكاره مع من سبقه من جهابذة النقد القديم ورواده ، ولا يسع المجال للوقوف عند كل مسألة نقدية تباين فيها مع غيره من النقّاد الأصوليين ، لكنه كان ناقداً محدثاً في المقام الأول . كما عبرَّ عن ذلك بقوله : ((ولو اقتصر المحدثون على كتب المتقدمين، لضاع علمٌ كثير ، وذهب أدبٌ غزير))[٥٦] .

الهوامـــش

١ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، ق١،م١ ،تحقيق د، إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، ٢٠٠٠ص ٢٠،٢٤ .

٢ــ المصدر نفسه ، ق١، م١، ص١٩ .

٣ــ العقد الفريد تأليف الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ) تحقيق محمد سعيد العريان ، ج١، دار الفكر ، شبرا ، ١٩٤٠، ص ٣ــــ٤ .

٤ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١، م١، ص١٩ــــ٢٠.

٥ــ قراءة في النص النقدي وأشكاله المختلفة عند الجاحظ معايير الموازنة والمفاضلة ، يوسف غيوة ، مجلة ثقافات ، كلية الآداب ، البحرين ، العدد ٣ ، صيف ٢٠٠٢م ،ص٣٢ .

٦ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١ م١ ، ص٥٦ــــ٥٧ .

٧ــ قراءة في النص النقدي وأشكاله المختلفة عند الجاحظ ، معايير الموازنة والمفاضلة ، ص٣٣ .

٨ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق١، م١، ص٢٠ .

٩ــ المصدر نفسه ق١، م٢،ص٣٤.

١٠ــ قراءة في النص النقدي وأشكاله المختلفة عند الجاحظ ، ص٣٧.

١١ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١،م١، ص.٤٨

١٢ــ المصدر نفسه ، ص .٣٢

١٣ــ دعبل بن علي الخزاعي من شعراء العصر العباسي أيام هارون الرشيد ، اشتهر بهجاء العباسيين وانتقاد حكمهم ، فقتل ، وفيات الأعيان ، ج١، ص ١٧٥.

١٤ــ الكميت بن زيد الأسدي ، شاعر الهاشميين في عهد بني أمية ، (ت١٢٦هـ) له الهاشميات المشهورة ، خزانة الأدب ، ج٣، .٣٦٥

١٥ــ السيد الحميري ، إسماعيل بن محمد بن ربيعة الحميري ، شاعر إمامي متقدم غزير الشعر ، مات في بغداد سنة (١٧٩هـــ) فوات الوفيات ، ج١، ص ١١٩.

١٦ــ كثيِّر شاعر من شعراء الحب العذري .

١٧ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١، م١، ص ٦٧ ـــ٦٩.

١٨ــ المصدر نفسه ق١،م١،ص.٤٦

١٩ــ المصدر نفسه ، ق١،م١، ص٤٣ ـــ٤٥.

٢٠ــ قراءة في النص النقدي وأشكاله المختلفة عند الجاحظ ، ص.٣٩

٢١ــ نظرية النص من بنية المعنى إلى سيمياء الدال ، د. حسين خمري ، ص٢٥٣.

٢٢ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١،م١، ص٣٧.

٢٣ــ البيان والتبيين ، الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، تحقيق وشرح ، محمد عبدالسلام هارون ، طبعة مكتبة الخانجي ، ١٩٧٥م، ج١، ١٣٥،

٢٤ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني ، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٦٦م ، ص ١٥ـــ١٦.

٢٥ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١،م١، ص٢٤ .

* الدولة المروانية هي الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨ ــ ٤٢٢هـــ)

** العامرية : نسبة إلى المنصور محمد بن أبي عامر وأسرته (توفي المنصور عام ٣٩٢ هـــ) .

*** أحمد بن فرج الجيَّاني شاعر ومؤلف أندلسي توفي حوالي سنة٣٦٠هـــ ، جذوة المقتبس ٩٧ ، اليتيمة ج ٢ص[١٦].

**** الأصبهاني : محمد بن داود الظاهري مؤلف كتاب (الزَّهرة) (ابن خلكان وفيات الأعيان ج٤ ص٢٥٩) .

***** أشار ابن بسَّام في هذه المقاطع إلى مقدمات معلقات الشعراء وهم : النابغة الذبياني ، وطرفة بن العبد ، وامرئ القيس ، وزهير بن أبي سُلمى ، إذ يقــول :

تَحَمَّلَ أهلُها مِنْها فَبانُوا على آثارِ من ذَهّبّ العَفاءُ

٢٦ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق ١، م١، ص٢٠ــ٢١.

٢٧ــ المصدر نفسه ق١،م١، ٢١ــ.٢٢

٢٨ــ المصدر نفسه ، ق١،م١، ص.٢٢

٢٩ــ المصدر السابق ، ص٢٢.

٣٠ــ ديوان حبيب بن أوس الطائي (أبو تمام) بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ،مصر ، ج١، ص .٢٢١

٣١ــ قضايا نقد الشعر في التراث العربي ، العزب ، محمد أحمد ، مطبعة الرفاعي ، القاهرة ، ١٩٨٤، ج١، ص.٢٠٢

٣٢ــ الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الطبعة الثالثة ، دار التراث العربي ، مصر، ١٩٧٧م، ج١،٦٩.

٣٣ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١،م١، ص.٢٣

٣٤ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١،م١، .٢٤

٣٥ــ المصدر نفسه ق١،م١،ص.٣٤

٣٦ــ رسائل ابن حزم ، ٦٥ـــــ٦٧ ، أنظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، الطبعة الثانية ، د.إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ص.٤٨٧

٣٧ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١، م١، ص ١٩٤ـــ١٩٥.

٣٨ــ المصدر نفسه ، ق١،م١، ص.٢٤

٣٩ــ المصدر نفسه ، ق١،م١، ص.٨

٤٠ــ إحكام صنعة الكلام ، لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي االأندلسي ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، ص٣٦ــ٣٧.

٤١ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١،م١، ص٢٣.

٤٢ــ المصدر نفسه ، ق١،م١،ص.٢٣

٤٣ــ المصدر نفسه ، ق١،م١، ص.٧٨

٤٤ــ ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ، الطبعة الأولى ، قدَّم له وشرحه ، الدكتور صلاح الدين الهوَّاري ، راجعه الدكتور ياسين الأيوبي ، دار ومكتبة الهلال ، ١٩٩٧م، ص ١١٢، انظر إيقاع اللون في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٥، ع٢٥، شوال هـ ، ص ٨٦٦ ــ ٨٦٧.

٤٥ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١،م١،ص ٧٧ــ ٧٨.

٤٦ــ قراءة في النص النقدي وأشكاله المختلفة عند الجاحظ ، ص.٤١

٤٧ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١،م ١ ، ص.٧٠

٤٨ــ هو أبو عيينة محمد بن أبي عيينة ، شاعر مولَّد ، الأغاني ، ج١٩ ص٢٠ ، ج٢٥، ص ٢٠٨. معجم الأدباء ، ج٥ ص .٩١

٤٩ــ الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، عبد القادر الرباعي ، ص ١٦٨. ينظر صورة اللون في الشعر الأندلسي دراسة دلالية فنية ، ص٣٢٤ــ٣٢٥.

٥٠ــ الشاعر الرومانسي أبو القاسم الشابي ، ص ٢١٤. ينظر القلق والاغتراب في شعر أبي القاسم الشابي ، ص .٢٨٣

٥١ــ أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، ص.٤١

٥٢ــ الشعر العربي المعاصر روائعه ومدخل لقراءته الطبعة الثالثة ، د الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٦، ص٨٣.

مصادر البحث ومراجعه

- إحكام صنعة الكلام لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت
- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني . تحقيق : هــ ريتر ، مطبعة وزارة المعارف ، استانبول ، ١٩٥٤م.
- كتاب الأغاني ، تأليف أبي الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين ، (ت٣٥٦هــ) (٩٧٦م) مصور عن طبعة دار الكتب ، تقديم محمد عبد القادر إبراهيم ، إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت.
- إيقاع اللون في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي ، د. خلف خازر الخريشة ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، ج١٥ ، ع٢٥ ، شوال ١٤٢٣ هــ .
- البيان والتبيين ، تحقيق: محمد عبد السلام هارون ، طبعة مكتبية الخانجي ، ١٩٧٥م ج١ .

- تاريخ النقد الأدبي عند العرب د. إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة بيروت . ١٩٧٨م.
- ديوان ابن درَّاج القسطلّي ، حققه وقدَّم له وعلق عليه الدكتور محمود علي مكي ، الطبعة الثانية ، من منشورات مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، الكويت ، ٢٠٠٤.
- ديوان حبيب بن أوس الطائي (أبو تمام) بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزَّام ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، مصر ، ج١، ١٩٥١م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسَّام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) ، ق١، م١، تحقيق د.إحسان عباس ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،٢٠٠٠ م
- رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق د، إحسان عباس . الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١م.
- الشعر العربي المعاصر ... روائعه ومدخل لقراءته ، د. الطاهر أحمد مكي ، الطبعة ٣ ، دار المعارف ، بمصر ١٩٨٦ م .
- الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ط٣ ، دار التراث العربي ، مصر ١٩٧٧م .
- الصورة الفنّية في شعر أبي تمام ، عبد القادر الرباعي ، ١٦٨ .
- صورة اللون في الشعر الأندلسي دراسة دلالية فنية ، د. حافظ المغربي ط١ ، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩م .

- العقد الفريد تأليف الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربَّه الأندلسي (ت٣٢٨هـ) تحقيق: محمد سعيد العريان ، الجزء الأول ، دار الفكر شبرا ، نوفمبر ١٩٤٠م / ١١شوال ١٣٥٩هـ .
- قراءة في النص النقدي وأشكاله المختلفة عند الجاحظ ، يوسف غيوة ، مجلة ثقافات ، كلية الآداب/جامعة البحرين ، العدد ٣ صيف٢٠٠٢.
- قضايا نقد الشعر في التراث العربي ، العزب ، محمد أحمد ، ط ، مطبعة رفاعي ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- القلق والاغتراب في شعر أبي القـاسم الشابي . حافظ المغربي ، مخطوط ماجستير بكلية الدراسات العربية ، جامعة المنيا ، ١٩٩٤م.
- معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، ط١، ١٩٩٣ م .
- نظرية النص من بنية المعنى إلى سيمياء الدال ، د. حسين خمري ، الطبعة الأولى ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ومنشورات الاختلاف ، الجزائر ، ٢٠٠٧م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز ، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، بيروت ، دار القلم ، شعبان ، سنة ١٣٨٦هـ/ نوفمبر ، سنة ١٩٦٦م .